الإمام الغزالي

بين

مادحيه وناقديه

الدكتور يوسف القرضاوي

مؤسسة الرسالة

الإمام الغزالى

بين

مادية وناقدية

الطبعة الرابعة

١٤١٤هـ - ١٩٩٤م



مؤسسة الرسالة بيروت - شارع سوريا - بناية صمدي وصالحة
هاتف: ٦٠٣٢٤٣ - ٨١٥١١٢ - ص.ب: ٧٤٦٠ - برقياً: بيوشران

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسوله ، وعلى آله وصحبه ومن اتبع هداه .

وبعــد

فلم يكن فى نيتى - فى هذه المرحلة على الأقل - أن أكتب عن الإمام أبى حامد الغزالى رضى الله عنه ، لا لشئ ، إلا لأن الرجل غنى بما كتب عنه فى شتى الاختصاصات ، وذلك لتعدد جوانب النبوغ فى شخصيته الفارعة ، وتنوع المواهب والقدرات التى آتاه الله إياها ، وسعة الآفاق والمجالات التى تناولها علما وعملا ودعوة وتعليما .

ومن عادتى ألا أكتب فى الموضوعات التى أشبعت بحثا ، إلا أن يكون عندى شئ يقال ، غير ما قاله من سبقنى ، تكميلا لنقص ، أو تصحيحا لمفهوم ، أو توضيحا لغامض ، أو تفصيلا لمجمل ، أو جمعا لمتفرق ، أو تقريبا لبعيد .. أو نحو ذلك مما تصنف له المصنفات . وإلا كان التصنيف تكرارا محضا ،

لا يضيف شيئا جديدا إلى دنيا العلم والفكر ، ولا يستحق الورق الذى يطبع به .

وليس من شيمتى ـ ولله الحمد على ذلك ـ أن أكرر غيرى ولا نفسى فيما أكتب .

من هنا لم أتجه إلى الكتابة عن إمامنا الغزالى ، رغم تعرفى عليه منذ عهد مبكر من حياتى ، عن طريق كتابين له هما : « إحياء علوم الدين » و « منهاج العابدين »..

ولكن الله عز وجل إذا قدر أمرا هيأ له أسبابه ، فقد أرسلت المنظمة الإسلامية للتربية والثقافة والعلوم (إيسسكو) كتابا إلى الجامعات فى البلاد الإسلامية ، تحثها فيه على الاحتفال بمرور تسعة قرون هجرية على وفاة الإمام الغزالى سنة ٥٠٥ هـ .

وكانت جامعة قطر ممن استجاب لهذا النداء الكريم ، واقترحت كلية الشريعة أن تعقد بعض الندوات ، وتلقى بعض المحاضرات ، ويصدر كتاب تذكارى عن الغزالى بهذه المناسبة .

وألفت الجامعة لجنة لإعداد هذا الكتاب ، وطلبت من عدد من الأساتذة تناول جوانب من حياة الغزالى ، كل فى اختصاصه .

وطلبت منى أن أكتب مقدمة مناسبة للكتاب كله ، تحمل نظرة عامة لعبقرية الغزالى ، وشخصيته الرحبة .

وبدأت أكتب هذه المقدمة ، محاولا أن أجيب فيها عن سؤال أساسى ، هو : لماذا سمى المسلمون الغزالى (حجة الإسلام) ؟ ولماذا أجمعوا ـ كما ذكر السيوطى ـ على اعتباره (مجدد المائة الخامسة) ؟ وما الدور المهم الذى قام به حتى تبوأ هذه المكانة فى الثقافة الإسلامية ، وفى الحياة الإسلامية ؟ .

كان فى تقديرى أن أكتب فى ذلك نحو عشر صفحات ، أو بضع عشرة صفحة على الأكثر .

فلما شرعت أكتب إذا بالموضوع يتسع أمامى ، وإذا الغزالى يفرض نفسه علىَّ بقوة ، وكأنه كان يعاتبنى من عالم الروح كيف أكتب عنه صفحات معدودة ، وأنا الذى تتلمذت عليه ، وغرفت من بحره ، منذ عهد الصبا ؟!

لهذا تركت القلم يكتب ما يسر الله له ، وانتقل الأمر من مجرد مقدمة للكتاب التذكارى إلى موضوع كامل يستفتح به الكتاب ، بل إنى وجدت البحث قد طال بأكثر مما ينبغى أن ينشر عن موضوع فى كتاب مشترك .. فأخرت جزءا منه ،

ونشرته فى (حولية كلية الشريعة) .

والآن أضم هذا وذاك لأجعل منهما كتابا عن الغزالى رحمه الله .

وبرغم أننى تتلمذت أول ما تتلمذت على الإمام الغزالى ، واستفدت من علمه ، ونهلت من معينه ، فقد تعلمت منه أيضا أن الرجال يعرفون بالحق ، وليس الحق يعرف بالرجال ، وأن كل أحد يؤخذ منه ويرد عليه ، وليس فى العلم معصوم بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فلا غرو أن نناقشه أو نخالفه فى بعض القضايا ، كما يناقش التلميذ أستاذه ويخالفه ، وكما خالف هو شيوخه وأئمته واستدرك عليهم ، محتفظين له بما ينبغى من إجلال وتقدير يليق بمنزلته فى الفكر ، وإمامته فى الدين ، معتقدين أنه كان مخلصا فى طلب الحق ، وفى ابتغاء رضوان الله ، وإن أخطأ فى بعض الأحيان .

ولقد أزعجنى فى هذا المقام صنفان متقابلان :

١ـ صنف يقدس أبا حامد الغزالى ، ويرفعه إلى مكانة تكاد تشبه العصمة ، ولا يقبل أن ينقد فى فكره ، أو يخطأ فى

قول ، أو يلام فى سلوك ، بعد أن ثبتت له الإمامة والولاية ، وعرفه الخاص والعام بأنه (حجة الإسلام)!

ونسى هؤلاء أن الغزالى بشر يصيب ويخطئ ، ووقوع الخطأ منه لا يقدح فى إمامته ولا ولايته ، ولا ينقص من قدره فى العلم أو الدين ، وهو معذور فيما أخطأ فيه ، بل مأجور إن شاء الله ؛ لأنه اجتهد وتحرى ما استطاع . وكل عالم مسلم اجتهد فى الوصول إلى الحق لم يحرم من الأجر ، سواء كان ذلك فى المسائل العملية الفروعية ، أم المسائل النظرية الأصولية ، كما قرر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله .

٢ـ والصنف الآخر ، يتحامل على الغزالى ، ويتطاول على مقامه ، ولا يعترف بما قدم للعلم والفكر والدين ، ويكاد يجرده من كل فضيلة ، فمنهم من يحمله تبعة انتشار التصوف المنحرف ، وثان يجعل فى رقبته ذيوع الأحاديث الموضوعة والضعيفة ، وآخر يحمله مسئولية التخلف الحضارى للأمة الإسلامية كلها ! ، ومنهم من يجعل له وجهين : وجها للخاصة ووجها للعامة ...

والإنصاف يقتضينا أن نقوّم الرجل بمجموع عطائه ، ومجموع حسناته ومزاياه ، وما أكثرها ! .

ولا يليق بنا أن نهدر فضائله الجمة ، وعطاءه الضخم ، لأمور كثيرا ما يختلف الناس فى تقديرها وتقويمها ، حتى ما اعتبر خطئا صريحا منها ، لا يجعلنا ننسى فضل أبى حامد وقدره .

وعيبنا فى كثير من قضايانا ـ فكرية أو عملية ـ الانقسام بين طرفى الإفراط والتفريط .

والمنهج السليم هو المنهج الوسط ، منهج العدل والاعتدال ، فى النظر إلى الأشياء والمواقف والأشخاص والأعمال .

وهو ما حاولت أن أسلكه فى دراستى هذه لشخصية هذا العملاق ، الذى ملأ الدنيا ، وشغل الناس .

فعسى أن يكون فى هذه الصحائف ما يفيد الدارسين ، ويلقى شعاعا من ضوء على هذه الحياة الحافلة بالعلم والعمل والجهاد الروحى والعملى والبحث عن الحق واليقين .

اللهم علمنا ما ينفعنا ، وانفعنا بما علمتنا ، وزدنا علما { سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا ، إنك أنت العليم الحكيم }

الدوحة
فى ٩ ربيع الآخر سنة ١٤٠٨ هـ
٣ / ١١ / ١٩٨٧ م

يوسف القرضاوى

الغزالى ..... حجة الإسلام

الغزالى : محمد بن محمد بن محمد الطوسى ، المكنى بأبى حامد ، والملقب بزين الدين ، المولود سنة ٤٥٠ هـ ، والمتوفى سنة ٥٠٥ هـ ، اسم رزق صاحبه من الشهرة والذيوع لدى الخواص والعوام ، وأثر فى الحياة العلمية والعملية ، ما لم يتح لأحد من العلماء والمفكرين قبله أو بعده فيما نعلم .

وهو بلا ريب أحد أعلام الفكر الإسلامى ، والفكر الإنسانى بوجه عام ، كما أنه أحد العباقرة الذين تعددت جوانب نبوغهم وعطائهم ، الجامعين للمعرفة الموسوعية التى شملت العلوم الشرعية فى عصره (إذا استثنينا علم الحديث الذى اعترف الغزالى أن بضاعته فيه مزجاة) ، فقد شملت معارفه الفقه والأصول والكلام والمنطق والفلسفة والتصوف والأخلاق وغيرها ، وصنف فى كل منها تصانيف تشهد له بالعمق والأصالة والتفوق وطول الباع .

وهو من ناحية أخرى أحد أقطاب التصوف والمجاهدة الروحية ، ورجال التربية والدعوة إلى الله تعالى .

فهو رجل علم وعمل ، ودعوة وإصلاح ، وهو أحد (الربانيين) الذين عَلِموا وعملوا وعلّموا .

والغزالى مثل كثير من العظماء الذين يبرزهم القدر ، فيحركون سواكن المجتمعات ، بما يحدثون فيها من تغيير فى الفكر أو السلوك ، فى العقيدة أو العمل ، ويتركون (بصماتهم) على حياتها المعنوية أو المادية ، الثقافية أو الاجتماعية أو السياسية .

ومثل هؤلاء العظماء يختلف الناس فى تقويمهم اختلافا كبيرا ، فمنهم من يعلو بهم إلى قمة القمم ، ومنهم من يهوى بهم إلى قاع الحضيض .

وهكذا رأينا موقف الناس من الغزالى ، فجمهور المسلمين إلى اليوم يرفعونه مكانا عَلِيّاً ، فى مجالى العلم والعمل ، وحسبنا أنه اختص دون سائر العلماء والمفكرين بلقب « حجة الإسلام » ، كما أنهم اعتبروه « مجدد القرن الخامس الهجرى » .

قال فيه شيخه إمام الحرمين : « الغزالى بحر مغدق » .
وقال فيه تلميذه الإمام محمد بن يحيى : « الغزالى هو الشافعى الثانى » .

وقال معاصره أبو الحسن عبد الغافر الفارسى : « الغزالى حُجّة الإسلام والمسلمين ، إمام أئمة الدين ، من لم تر العيون مثله لساناً وبيانا ، ونطقا وخاطرا ، وذكاءً وطبعا » .

وقال ابن النجار : « إمام الفقهاء على الإطلاق ، وربانى هذه الأمة باتفاق ، ومجتهد زمانه ، وعين وقته وأوانه » .

كما أنه فى نظرهم أحد أولياء الله وَصِدِّيقىٌّ الأمة ، وهذا ما شهد له به كبار الصوفية مثل أبى الحسَن الشاذلى ، وأبى العباس المرسى وغيرهما .

قال المرسى : « أشهد له بالصديقية العظمى »[1] .

نقل ذلك كلـه العلامـة التاج ابن السـبكى فى ترجمته فى (طبقات الشافعية) التى استهلها بقوله عن الغزالى : « حجة الإسلام ومحجة الدين التى يتوصل بها إلى دار السلام ، جامع أشتات العلوم ، والمبرز فى المنقول منها والمفهوم » .

وقال الحافظ ابن كثير فى (البداية والنهاية) :

« برع فى علوم كثيرة ، وله مصنفات فى فنون متعددة ،

(١) طبقات الشافعية الكبرى : بتحقيق عبد الفتاح محمد الحلو ومحمود الطناحى ، جـ ٦ ص ١٩٢ـ ٢١٦ .

فكان من أذكياء العالم فى كل ما يتكلم فيه ، وساد فى شبيبته ، حتى أنه درّس بـ (النظامية) ببغداد وله أربع وثلاثون سنة ، فحضر عنده رؤوس العلماء ، وكان ممن حضره أبو الخطاب ، وابن عقيل ، وهما من رؤوس الحنابلة ، فتعجبوا من فصاحته واطلاعه .

قال ابن الجوزى : وكتبوا كلامه فى مصنفاتهم »[1] .

وقال ابن العماد الحنبلى فى (الشذرات) : « الإمام زين الدين ، حجة الإسلام ، أبو حامد أحد الأعلام ، صنف التصانيف ، مع التصون والذكاء المفرط والاستبحار فى العلم ، وبالجملة ما رأى الرجل مثل نفسه »[2].

الغزالى موسوعة عصره :

وفى عصرنا كتب كثيرون عن الغزالى ، وقدم فيه كثيرون رسائل وأطروحات علمية ، كل فى مجال اختصاصه واهتمامه .

فالفقهاء يبحثون عنه من خلال كتبه الفقهية الشهيرة فى مذهب الشافعى ، وهى أربعة كتب شهيرة ، مرتبة ترتيبا

(١) البداية والنهاية جـ ١٢ ص ١٧٣ ـ ١٧٤ ـ ط بيروت ١٩٦٦ م .
(٢) شذرات الذهب جـ ٤ ص ١٠ ط المكتب التجارى ـ بيروت .

تنازليا من حيث السعة والتعمق ، وهى : البسيط والوسيط والوجيز والخلاصة ، كل واحد منها لمستوى علمى معين ، وفى هذا يتناشد أهل المذهب قول القائل :

هـــذب المذهب حبر أحسن الله خلاصـــه
ببســـيط ووسيط ووجـــيز وخلاصـــة

إلى كتب أخـــرى .

وكم أود أن يبحث باحث عن فقهه غير المذهبى من خلال كتبه الأخرى ، وبخاصة (الإحياء) حيث تحرر فى كثير من المسائل من تقليد المذهب ، وبحث عن الدليل ، ووازن بين الأقوال ، واختار ما يراه صحيحا ، أو أصح وأقوى ، كما أنه حاول أن (يفقّه) التصوف و (يصوّف) الفقه ، إن صح التعبير ، وإن كان تصوفه غلب على فقهه ، وعسى أن أوفق لمعالجة ذلك إذا يسر الله تعالى فى بحث مستقل .

والأصوليـــون يدرســـونه مـــن خـــلال كتبـــه الأصوليـــة : (المنخـول) الذى كتبه فى أوائل حياته ، وانتخله من آراء شيخه إمام الحرمين ، و (المستصفى) الذى غدا أحد دعائم علم الأصول ، فيما بعد ، وهو ـ كما ذكـر فى مقدمتـه ـ مختصر من كتابه (تهذيب الأصول) الذى يبدو أنه فقد فيما فقد من ذخائرنا الفكرية الإسلامية .

والمشتغلون بالفلسفة والكلام والمنطق يبحثون عنه من خلال آثاره الفلسفية والكلامية والمنطقية مثل : (مقاصد الفلاسفة) و (تهافت الفلاسفة) و (المنقذ من الضلال) و (الاقتصاد فى الاعتقاد) و (فيصل التفرقة) و (قواعد العقائد) و (المقصد الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى) و (معيار العلم) و (محك النظر) و (**القسطاس المستقيم**) و (إلجام العوام عن علم الكلام) و (جواهر القرآن) و (كيمياء السعادة) و (معارج القدس) و (مشكاة الأنوار) وإن كان هناك من يشك فى نسبتهما إليه .

والباحثون فى التصوف والأخلاق والتربية يدرسونه من خلال موسوعته الكبرى : (إحياء علوم الدين) ، وكتبه الأخرى مثل (منهاج العابدين) و (بداية الهداية) و (ميزان العمل) و (معراج السالكين) و (أيها الولد) وغيرها .

والباحثون فى الأديان والفرق يدرسونه من خلال كتبه : (القول الجميل فى الرد على من غيَّر الإنجيل) و (فضائح الباطنية) و (حجة الحق) و (مفصل الخلاف) وغيرها .

والباحثون فى الدراسات النفسية والاجتماعية يجدون مجالا رحبا لهم من خلال كتب الغزالى المذكورة ، وخصوصا (الإحياء) الذى سجل فيه كثيرا من الظواهر الاجتماعية فى

عصره ، وعرض لكثير من العلل الخلقية ، والآفات الاجتماعية لدى طبقات المجتمع المختلفة ، وغرورهم وغفلتهم عن أدوائهم ، وحلل أسبابها ، ونقدها نقداً علمياً قوياً ووصف الدواء لها من طب الإسلام كما فهمه .

وهناك معارف كثيرة يجدها الدارس فى تراث الغزالى ... أشير منها الآن إلى الجانب الاقتصادى الذى له فيه نظرات عميقة وسبّاقة ، ومن تتبع (الإحياء) وحده يجد فيه الكثير منها ، ابتـــداء بكتاب (العلم) ، مرورا بكتاب (أسرار الزكاة) وكتاب (كسب المعيشـــة) و (الحـــلال والحرام) و (البخل) و (الزهد) وغيرها ، حتى قال أحد الاقتصاديين المسلمين : إن أعظم ما كتب عن النقود ووظائفها فى العصور الوســـطى هو ما كتبه عنها الغزالى فى كتاب (الشكر) من (الإحياء) ، حين تحدث عن نعمة الله فى هدايته الإنسان إلى استخدام النقود (الدراهم والدنانير) بدل نظام المقايضة ، وما أجدر أن يكـون ذلـك الجانـب موضوعـا لرسالـة من رســائل (الدكتوراه) فى الفكر الاقتصادى الإسلامى .

لقد كان الغزالى يمثل دائرة معارف عصره ، وكان أحد العمالقة الذين عرفهم تاريخ العلم والثقافة فى تراثنا السخى العريض ....

ولعل من أبلغ ما قيل فى تصوير هذه الثقافة الموسوعية

للغزالى كلمة الأستاذ الأكبر المرحوم الشيخ محمد مصطفى المراغى ، شيخ الأزهر فى وقته ، فى تقديمه لكتاب الدكتور / أحمد فريد الرفاعى عن الغزالى ، قال :

« إذا ذكرت أسماء العلماء اتجه الفكر إلى ما امتازوا به من فروع العلم ، وشعب المعرفة ، فإذا ذكر ابن سينا ، أو الفارابى خطر بالبال فيلسوفان عظيمان من فلاسفة الإسلام ، وإذا ذكر البخارى ، ومسلم ، وأحمد ، خطر بالبال رجال لهم أقدارهم فى الحفظ ، والصدق ، والأمانة ، والدقة ، ومعرفة الرجال ....

أما إذا ذكر الغزالى فقد تشعبت النواحى ، ولم يخطر بالبال رجل واحد ، بل خطر بالبال رجال متعددون ، لكل واحد قدرته ، وقيمته ... يخطر بالبال الغزالى الأصولى الحاذق ، الماهر ، والغزالى الفقيه الحر ، والغزالى المتكلم ، إمام السنة وحامى حماها ، والغزالى الاجتماعى ، الخبير بأحوال العالم وخفيات الضمائر ومكونات القلوب ، والغزالى الفيلسوف ، أو الذى ناهض الفلسفة ، وكشف عما فيها ، إنه يخطر بالبال رجل هو دائرة معارف عصره ، رجل متعطش إلى معرفة كل شىء ، نهم إلى فروع المعرفة » .

الغزالى حجة الإسلام ومجدد المائة الخامسة :

ولكن أهمية الغزالى ليست فى معرفته الموسوعية ، فكم فى تاريخنا من موسوعيين لم يتبوؤا مكانة الغزالى فى عقول المسلمين ومشاعرهم ، ولم يفوزوا بلقب (حجة الإسلام) .

وهنا نحب أن نقف وقفة لنسأل :

ماالذى جعل محبى الغزالى ـ وهم جمهور الأمة ـ يعتبرونه « حجة الإسلام » ويخصونه بهذا اللقب دون غيره ؟

ثم لماذا عدوه مجدد المائة الخامسة ؟ وأنه الذى ينطبق عليه الحديث النبوى الذى رواه أبو داود والحاكم والبيهقى فى المعرفة « إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها » كما عدوا إمامه محمد بن إدريس الشافعى من قبل مجدد المائة الثانية ؟

ولقد رأينا المؤرخين والمحدثين يختلفون فى تعيين المجددين على رؤوس القرون المختلفة ، ولكنهم لم يختلفوا فى أن مجدد المائة الأولى عمر بن عبد العزيز ، والمائة الثانية الشافعى ، والخامسة الغزالى ، كما يقول السيوطى فى منظومته عن المجددين :

والثامن الحـــبر هو الغزالى وعده ما فيه من جـدال

دور الغزالى فى نقض الغزو الفلسفى والباطنى :

والذى يتبين لدراس الغزالى ، ودراس عصره أن الرجل أدى مهمة متميزة فى تاريخ الفكر الإسلامى ، فإن الأمة الإسلامية كانت مصابة بما يشبه الهزيمة العقلية والنفسية أمام النِّحل المنشقة ، والفرق الهدامة ، والفلسفات الوافدة ، والبدع الفكرية المحدثة ، ولم يكن ذلك لقوة هذه الأفكار الغازية ، بل لضعف أسلحة المدافعين عن العقيدة الإسلامية .

وقد أثمرت هذه الهزيمة العقلية والنفسية شكًّا فى الدين ، وضعفا فى اليقين ، وانحلالا فى الأخلاق ، واضطرابا فى السياسة ، وفسادا فى الاجتماع ، أشاعهُ أتباع الفلسفة ، ودعاة الباطنية ، وبينهما حلف ظاهر ، واتصال خفى ، وتعاون مشبوه ، فالفلاسفة مهدوا للباطنية بتأويلهم المحكمات بل القطعيات فى الدين ، وملأوا كتبهم بالإشارات والرموز وخصوصا فى رسائل (إخوان الصفا) ، والباطنية كانوا يبحثون عن أنصارهم فى طلاب الفلسفة ، وفى بقايا الوثنيين ، كما ذكر ذلك المستشرق (دوزى) .

ولقد كان عصره بالنظر إلى الفلسفة (الإغريقية الأصول)

أشبه ما يكون بعصرنا بالنسبة إلى حضارة الغرب وفلسفاته الفكرية .

لقد كانت الفلسفة هى (المعبود المقدس) لدى عِلْيَةِ المثقفين الذين يدعون لأنفسهم التحرر من ربقة العصبية والتقليد الفكرى ، وكان هذا هو الغزو الثقافى الناجح للعقل المسلم ، وللشخصية المسلمة ، فى تلك الأعصار ، حيث لم يستطع الغزو اليهودى عن طريق (الإسرائيليات) أن يغير من هذا العقل ويؤثر فى اتجاهه ، وإن استطاع أن يكدر من صفاء ينابيع ثقافته .

أثرت الفلسفة فى تفكير الكثيرين من الأذكياء وسلوكهم ، وبدأ ذلك فى التحلل من تكاليف الدين ، وأحكام الشريعة ، حيث وجدوا أمامهم (طائفة يعتقدون فى أنفسهم التميز عن الأتراب والنظراء ، بمزيد الفطنة والذكاء ، قد رفضوا وظائف الإسلام من العبادات ، واستحقروا شعائر الدين ووظائف الصلوات ، والتوقى عن المحظورات ، واستهانوا بتعبدات الشرع وحدوده ، ولم يقفوا عن توقيفاته وقيوده ، بل خلعوا بالكلية ربقة الدين ، بفنون من الظنون ، يتبعـــون فيها رهطا : { يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا وهم بالآخرة هم كافـرون } .

وإنما مصدر كفرهم سماعهم أسامي هائلة ، كسقراط وبقراط ، وأفلاطون ، وأرسطوطاليس ، وأمثالهم .... وأطناب طوائف من متبعيهم وضلالهم في وصف عقولهم ، وحسن أصولهم ، ودقة علومهم الهندسية والمنطقية والطبيعية والإلهية .... وحكايتهم عنهم أنهم منكرون للشرائع والنحل ، وجاحدون لتفاصيل الأديان والملل ، ومعتقدون أنها نواميس مؤلفة وحيل مزخرفة (من مقدمة « تهافت الفلاسفة ») .

الرجل الذى أعده القدر لمصارعة الفلاسفة :

هكذا برز الكفر ، وبرز معه التحلل ، وبرز معهما ومنهما الفوضى ، يتطاير شررها إلى أوضاع المجتمع كله . وكان الميدان فى حاجة إلى فارس مقتدر مدرب ، يعرف كيف يقاتل فى حلبة الفكر ، مسلح بمثل أسلحة المهاجمين ، قادر على أن يحارب خصومه بمثل ما يحاربونه به ، السيف بالسيف والرمح بالرمح ، شجاع لا يتهيب خوض معركة ، ولايرهب خصما مهما علا صيته ، وكان ذلك الفارس الذى أعده القدر الأعلى ، ليسد الثغرة ، ويملأ الفراغ ، هو أبا حامد الغزالى ، اعترف بذلك القدماء والمعاصرون .

فمن القدماء : نجد التاج ابن السبكى يقول فى (طبقاته) :

« جاء والناس إلى رد فرية الفلاسفة أحوج من الظلماء إلى مصابيح السماء ، وأفقر من الجدباء إلى قطرات الماء ، فلم يزل يناضل عن الدين الحنيفى بجلاد مقاله ، ويحمى حوزة الدين .. حتى أصبح الدين وثيق العرا ، وانكشفت غياهب الشبهات »[1] .

ومن المعاصرين : نجد العلامة أبا الحسن الندوى يقول فى (رجال الفكر والدعوة فى الإسلام) :

« كان العالم الإسلامى فى القرن الخامس وقد تواضعت على إضعافه الفلسفة والباطنية ، وأحدثتا تبلبلا فكريا ، يجره إلى الإلحاد فى العقيدة ، والتدهور فى الأخلاق ، والاضطراب فى السياسة ، فى حاجة ملحة إلى شخصية قوية جديدة ترد إليه الإيمان بالعقيدة ، والاعتماد على مصادر الدين الأصيلة ، والاستقامة فى الأخلاق ، وينتج الإنتاج الجديد الذى تكسد معه سوق الباطنية ، وتركد ريحها وتعرض الإسلام عرضا عقليا جميلا ، تدحض معه حجج الفلاسفة والباطنية ، وكان لابد لهذه الشخصية أن تكون جامعة بين العلوم العقلية والنقلية ، لها فى كل منها قدم راسخة ، وباع طويلة ونظر نافذ ، وتكون عقلية كبيرة تناهض فلاسفة اليونان وقادة الفكر فى العالم ، تجرى معهم فى رهان واحد ، وتستطيع أن تدون كثيرا من العلوم

---

(١) طبقات الشافعية : ٦ / ١٩٣ .

تدوينا جديدا ، وتقول فيها كلمتها ، وتجمع إلى ذلك كله ـ من المواهب العلمية والكفاية العقلية ـ الإيمان القوى الراسخ الذى اكتسبه هذا الرجل بدراسته وتأملاته ، وإخلاصه وجهاده فى سبيل الوصول إلى المعرفة واليقين ، ويستطيع بكل ذلك أن ينفخ فى المجتمع الإسلامى روحا جديدة وحياة جديدة .

لقد رزق العالم الإسلامى ـ وهو فى أشد حاجة وأدق ساعة ـ هذه الشخصية الفذة فى منتصف القرن الخامس الهجرى : هى شخصية الغزالى »[1] .

كان الغزالى مسلحاً بما يمكنه من منازلة كبار الفلاسفة ، ومقارعة أفكارهم بمثلها ، أو بأقوى منها ، ولايفل الحديد إلا الحديد .

وكان مما أعانه على مهمته أنه لم يبدأ هجومه على الفلسفة إلا بعد أن درسها واستوعبها ، وتضلع منها ، حتى أصبح كواحد من كبار رجالها ، حتى إذا رد عليها كان رده رد الخبير بها لا رد الدخيل عليها الغريب عنها ، لعلمه يقينا (أنه لا يقف على فساد نوع من العلوم من لا يقف على منتهى ذلك العلم ، حتى يساوى أعلمهم فى أصل ذلك العلم ، ثم يزيد عليه ويجاوز درجته ، فيطلع على ما لم يطلع عليه صاحب

(١) رجال الفكر والدعوة فى الإسلام ص ١٧٩ ـ ١٨٠ ط دار القلم بالكويت .

العلم من غور وغائلة) كما ذكر فى (المنقذ)[1] ، وقد تجلت هذه الدراسة والمعرفة فى كتابه الشهير (مقاصد الفلاسفة) .

كما أعانه على ذلك عقل حر متمرد ، يأبى أن يقيد بأغلال التقليد ولو كانت من ذهب ، ويبحث عن الحق والدليل ، حيث كان منذ فجر الشباب .

أجل ... كان الغزالى رجلا طلعة ، مولعا بالبحث عن الحقيقة ، والسعى وراء المجهول ، والتفتيش عن اليقين الذى ينشرح به الصدر ، ويطمئن به القلب ، لايقنع بالتقليد ، فالتقليد لا ينتج علما يقينيا ، ولا يكتفى بالظن ، فالظن فى قضايا الاعتقاد والأصول لا يغنى من الحق شيئا ، ولهذا شدد الحملة على التقليد والمقلدين ، ومما قاله فى ذلك :

« اعلم يا أخى أنك متى كنت ذاهبا إلى تعرف الحق بالرجال ، من غير أن تتكل على بصيرتك ، فقد ضل سعيك ، فإن العالم من الرجال ، إنما هو كالشمس ، أو كالسراج ، يعطى الضوء ، ثم انظر ببصرك ، فإن كنت أعمى فما يغنى عنك السراج والشمس ، فمن عوّل على التقليد ، فقد هلك هلاكا مطلقا »[2] .

---

(١) المنقذ من الضلال بتقديم وتعليق د. عبد الحليم محمود .

(٢) معراج السالكين / ٩٨ .

وقد نشأ فى عصر تعددت فيه النحل والمدارس العقلية ، وتصارعت فيه الاتجاهات الفكرية والدينية ، داخل الساحة الإسلامية ، ووجد نفسه أمام بحر لُجيّ من اختلاف المذاهب والتيارات ، متلاطم الأمواج ، عميق القاع ، فلم يقف موقف المتفرج ، ولم يرعه سعة البحر ، ولاشدة الموج ، ولا عمق القاع ، ولا كثرة من غرق من قبل ، ممن لم يحسن الغوص والسباحة ، بل خاض هذا البحر الخضم خوض الماهر الجسور ، لا خوض الجبان الحذور .

وما أجدرنا أن ننقل عبارته هنا بنصها من (المنقذ) لما فيها من وضوح ونصاعة ، يقول مبينا ما قاساه فى استخلاص الحق من بين اضطـراب الفـرق ، مع تبـاين المســالك والطـرق وما استجرأ عليه من الارتفاع عن حضيض التقليد إلى بقاع الاستبصار :

« ولم أزل فى عنفوان شبابى ـ منذ راهقت البلوغ ، قبل بلوغ العشرين ، إلى الآن ، وقد أناف السن على الخمسين ـ : أقتحم لجة هذا البحر العميق ، وأخوض غمرته خوض الجسور ، لا خوض الجبان الحذور ، أتوغل فى كل مظلمة ، وأتهجم على كل مشكلة ، وأتقحم كل ورطة ، وأتفحص عن عقيدة كل فرقـة ، وأستكشف أسرار مذهب كل طائفة ، لأميز بين مُحقٍ ومبطلٍ ، ومتسنن ومبتدع .

لا أغادر باطنيا إلا وأحب أن أطلع على بطانته ،
ولاظاهريا إلا وأريد أن أعلم حاصل ظهارته ،
ولا فلسفيا إلا وأقصد الوقوف على كنه فلسفته ،
ولا متكلما إلا وأجتهد في الاطلاع على غاية كلامه ومجادلته ،
ولا صوفيا إلا وأحرص على العثور على سر صفوته ،
ولا متعبدا إلا وأترصد ما يرجع إليه حاصل عبادته ،
ولا زنديقا معطلا إلا وأتحسس وراءه للتنبه لأسباب جرأته ، في تعطيله وزندقته .

وقد كان التعطش إلى درك حقائق الأمور : دأبي ، وديدني ، من أول أمري ، وريعان عمري : غريزة ، وفطرة من الله وضعتا في جبلتي لا باختياري وحيلتي ، حتى انحلت عني رابطة التقليد ، وانكسرت على العقائد الموروثة ، على قرب عهد سن الصبا » .

وشيء آخر ساعد الغزالي على نقد الفلسفة ، وإظهار تهافت الفلاسفة هو ثقته بنفسه ، واعتداده بفكره ، وشجاعته الأدبية ، التي لم ترعها الأسماء الطنانة ولا الألقاب الضخمة ، وهو يريد لقارئه أن يصحب معه هذه الروح التي لا تبالي بشهرة القائلين ، بل بصواب القول ، ويحاول بأسلوبه اللاذع أن يهون

من تلك الأسماء وأصحابها بتعليقاته الساخرة على مقولاتها (التى هى على التحقيق مضاحك العقلاء وعبرة عند الأذكياء) .

فهو يعقب مرة على قولهم فى العقول العشرة ، والأفلاك ، وكيف تولد بعضها من بعض ، مما لم يقم عليه دليل من عقل ، ولا وحى ، ولا تجربة ، فيقول : « ما ذكرتموه تحكمات . وهى ـ على التحقيق ـ ظلمات فوق ظلمات ، لو حكاه إنسان عن منام رآه لاستدل به على سوء مزاجه »[1] !

ثم إن الغزالى حين وقف في وجه الفلسفة الغازية لم يقف محاربا لها باعتباره سنيا ، أو أشعريا ، أو شافعيا ، بل باعتباره مسلما فحسب ، وهذه الفلسفة تريد أن تقتلع جذور الجميع ، ولا تبقى للدين باقية ، فهو لهذا يستمد أسلحته من جميع الفرق والمذاهب ، ويعبىء كنانته من كل سهم يجده عند هذا المذهب أو ذاك ، وهو يقول مبينا غرضه :

« ليُعْلَم أن المقصود تنبيه من حسن اعتقاده فى الفلاسفة ، وظن أن مسالكهم نقية عن التناقض ، ببيان وجوه تهافتهم ، فلذلك أنا لا أدخل عليهم إلاَّ دخول مطالب منكر ، لا مدع مثبت ، فأكدر عليهم ماعتقدوه ، مقطوعا بإلزامات مختلفة ،

(١) التهافت ص ١١٥ .

فألزمهم تارة مذهب المعتزلة ، وأخرى مذهب الكرامية ، وطورا مذهب الواقفية ولا أنتهض ذابا عن مذهب مخصوص ، بل أجعل جميع الفرق إلبا واحدا عليهم ، فإن سائر الفرق ربما خالفونا فى التفصيل ، وهؤلاء يتعرضون لأصول الدين ، فلنتظاهر عليهم ، فعند الشدائد تذهب الأحقاد »[1] .

وما أحق مسلمى اليوم أن يستفيدوا من هذا الدرس من الإمام الغزالى ، فينسوا خلافاتهم الجزئية ، ومعاركهم الجانبية ، فيقفوا إلبا واحدا على أعداء الإسلام وما أكثرهم !

هذا إلى أن الغزالى كان يعرف ميدانه جيدا ، ويعرف من عدوه ، فهو لم يشن غارته على كل الفلاسفة ، ولم يصوب سهامه إلى كل أنواع الفلسفة ، وبهذا حدد مجال معركته .

كانت الفلسفة فى عصر الغزالى تشمل شعبا عدة ، بعضها خرج اليوم من نطاق الفلسفة تماما ، إلى نطاق العلم ، مثل الرياضيات والطبيعة (الفيزيا) كما كان المنطق جزءا منها .

وكان من شعب الفلسفة ما يتعلق بالأخلاق والسياسة .

وكان من خطر الفلسفة ـ كما رآه الغزالى بوضوح ـ يتجلى

---

(١) من المقدمة الثالثة للتهافت .

فى الفلسفة الإلهية أو (الميتافيزيقية) كما يسمونها ، فهى التى تنازع الدين نزاعا مباشرا فى سلطانه ، وتريد أن تخرجه من ملكه ، فتكون كلمتها هى العليا وكلمته هى السفلى .

ومن ثم كان هجوم الغزالى منصبا عليها وقد بين ذلك بجلاء فى (التهافت) و (المنقذ) ، وحذر من الخلط بين شعب الفلسفة المختلفة ، وإنكار مالا يجوز إنكاره منها ، كما يفعل بعض الأصدقاء الجهلة للإسلام .

لم يشغل الغزالى نفسه ، ولم يجهد فكره ولا قلمه فى الرد على (الدهريين) ولا (الطبيعيين) من الفلاسفة ، ممن ينكرون الألوهية ، أو ممن يقرون بها وينكرون الآخرة ، لأن أمر هؤلاء وهؤلاء مكشوف مفروغ منه ، ولا يتصور من مسلم قبول فكرتهم ، ولا الانخداع بها ، لأن مخالفتها للإسلام واضحة وضوح الصبح لذى عينين ، وقد كفاه غيرهم من الفلاسفة أنفسهم الرد عليهم .

إنما الخطر فى الفلاسفة الذين يعرفون باسم (الإلهيين) الذين يقرون بوجود الصانع ، أو واجب الوجود ، أو العلة الأولى ، أو المحرك الأول ، على اختلاف تسمياتهم ، والذين لا يجحدون الدين صراحة ، ولكن يناقضون عقائده وشرائعه ، ومعطياته الأساسية مناقضة جذرية بينة ، لمن سبر غورهم ،

وهتك سترهم .

فكانت معركة الغزالى مع هؤلاء ، وقد قسم فلسفتهم إلى أقسام :

قسم يجب التكفير به (وصف من ذهب إليه بالكفر) ،
وقسم يجب التبديع به (وصف من ذهب إليه بالبدعة) ،
وقسم لا يجب إنكاره أصلا .

وأوضح فى (المنقذ) أقسام علومهم ، وموقف الدين منها غاية الإيضاح :

١ـ فأما (الرياضة) منها : فتتعلق بعلم الحساب ، والهندسة ، وعلم هيئة العالم ، وليس يتعلق شئ منها بالأمور الدينية نفيا وإثباتا ، بل هى أمور برهانية ، لا سبيل إلى مجاحدتها بعد فهمها ، ومعرفتها .

ولكنه بين هنا أن ثمت آفتين تولدتا منها ، لا لذاتها :

الأولى : أن من ينظر فيها يتعجب من دقائقها، ومن ظهور براهينها : فيحسن بسبب ذلك اعتقاده فى الفلاسفة فيحسب أن جميع علومهم فى الوضوح ، وفى وثاقة البرهان كذا العلم ، ثم يكون قد سمع من كفرهم ، وتعطيلهم

وتهاونهم بالشرع ما تداولته الألسنة ، فيكفر بالتقليد المحض ، ويقول : لو كان الدين حقا ، لما خفى على هؤلاء مع تقدمهم فى هذا العلم ، فإذا عرف بالتسامع ، كفرهم وجحدهم ، فيستدل على أن الحق : هو الجحد والإنكار للدين ، وكم رأيت من يضل عن الحق بهذا القدر ولا مستند له سواه !

وإذا قيل له : الحاذق فى صناعة واحدة ليس يلزم أن يكون حاذقا فى كل صناعة ، فلا يلزم أن يكون الحاذق فى الفقه ، والكلام ، حاذقا فى الطب ... بل لكل صناعة أهل بلغوا فيها رتبة البراعة والسبق ، وإن كان الحمق والجهل قد يلزمهم فى غيرها ، فكلام الأوائل فى الرياضيات برهانى ، وفى الإلهيات تخمينى ، لم يستجب لصوت العقل بل تحمله غلبة الهوى وشقوة البطالة ، وحب التكايس على أن يصر على تحسين الظن بهم فى العلوم كلها .

الآفة الثانية : نشأت من صديق للإسلام جاهل ، ظن أن الدين ينبغى أن ينصر بإنكار كل علم منسوب إليهم : فأنكر جميع علومهم ، وادعى جهلهم فيها ، حتى أنكر قولهم فى الكسوف ، والخسوف ، وزعم أن ما قالوه على خلاف الشرع ، فلما قرع ذلك سمع من عرف ذلك بالبرهان القاطع ، لم يشك فى برهانه ، لكن اعتقد أن الإسلام مبنى على الجهل ، وإنكار البرهان القاطع ، فازداد للفلسفة حبا ، وللإسلام بغضا .

ولقد عظمت على الدين جناية من ظن أن الإسلام ينصر بإنكار هذه العلوم ، وليس فى الشرع تعرض لهذه العلوم بالنفى ، والإثبات ، ولا فى هذه العلوم تعرض للأمور الدينية .

فهذا حكم الرياضيات وآفاتها .

٢ـ وأما المنطقيات : فلا يتعلق شئ منها بالدين ، نفيا وإثباتا ، بل هو النظر فى طرق الأدلة ، والمقاييس ، وشروط مقدمات البرهان ، وكيفية تركيبها ، وشروط الحد الصحيح ، وكيفية ترتيبه ...... الخ .

وليس فى هذا ماينبغى أن ينكر ، بل هو من جنس ما ذكره المتكلمون ، وأهل النظر فى الأدلة .

٣ـ وأمام علم الطبيعيات : فهو بحث عن عالم السماوات ، وكواكبها وما تحتها من الأجسام المفردة : كالماء والهواء ، والتراب ، والنار [1] ، ومن الأجسام المركبة : كالحيوان والنبات والمعادن ، وعن أسباب تغيرها ، واستحالتها ، وامتزاجها ، وذلك يضاهى بحث الطب عن جسم الإنسان ، وأعضائه

---

(١) كان الفلاسفة قديما يعتقدون أن الماء والهواء والتراب والنار عناصر بسيطة أو مفردة ، وما عداها مركبات ، وقد أثبت العلم الحديث خطأ هذا كله ، مما أصبح معلوما لدى التلاميذ فى مدارسهم .

الرئيسية والخادمة ، وأسباب استحالة مزاجه ، وكما أنه ليس من شرط الدين إنكار علم الطب فليس من شرطه أيضا إنكار ذلك العلم ، إلا فى مسائل معينة ، ذكرناها فى كتاب : " تهافت الفلاسفة " وما عداها مما يجب المخالفة فيها ، فعند التأمل يتبين أنها مندرجة تحتها .

وأصل جملتها : أن تعلم أن الطبيعة مسخرة لله تعالى ، لا تعمل بنفسها بل هى مستعملة من جهة فاطرها ، والشمس والقمر ، والنجوم ، والطبائع مسخرات بأمره ، لا فعل لشئ منها بذاته عن ذاته .

٤ـ وأما الإلهيات : ففيها أكثر أغاليطهم فما قدروا على الوفاء بالبراهين على ما شرطوه فى المنطق ، ولذلك كثر الاختلاف بينهم فيها .

ولقد قرب مذهب " أرسطاطاليس " فيها من مذاهب الإسلاميين ، على مانقله الفارابى ، وابن سينا .

ولكن مجموع ما غلطوا فيه يرجع إلى عشرين أصلا ، يجب تكفيرهم فى ثلاثة منها ، وتبديعهم فى سبعة عشر .

ولإبطال مذهبهم فى هذه المسائل العشرين ، صنفنا كتاب

" التهافت " ، أما المسائل الثلاث فقد خالفوا فيها كافة المسلمين ، وذلك فى قولهم :

" إن الأجساد لا تحشر ، وإنما المثاب والمعاقب هى الأرواح المجردة ، والمثوبات والعقوبات روحانية لا جسمانية .

ولقد صدقوا فى إثبات الروحانية ، فإنها كائنة أيضا ، ولكن كذبوا فى إنكار الجسمانية ، وكفروا بالشريعة فيما نطقوا به " .

ومن ذلك قولهم : إن الله تعالى يعلم الكليات دون الجزئيات . وهذا أيضا كفر صريح ، بل الحق أنه : " لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى السموات ، ولا فى الأرض " .

ومن ذلك قولهم بقدم العالم وأزليته [1].

---

(١) ذكر الدكتور أبو ريدة فى تعليقاته على (دى بور) : أن الفيلسوف الكندى ، يصرح بحدوث العالم ، وأنه مبتدع (بفتح الدال) وأن له مدة محدودة ، قدرها له مبدعه ، وهو يفنيه إن شاء .
وكذلك الفارابى ، فهو يؤكد حدوث العالم من لا شئ ، بل نراه يستقبح ـ فى كتابه (الجمع بين رأى الحكيمين) ـ رأى من يظن أن أرسطو يقول بقدم العالم !
قال أبو ريدة : وهذا شئ غريب جدا ، لأنه يخالف الحكم السائد الذى صار ـ منذ عصر الغزالى ـ هو المعتبر فيما يتعلق بفلاسفة الإسلام ! (انظر : تاريخ =

فلم يذهب أحد من المسلمين إلى شئ من هذه المسائل .

وأما ما وراء ذلك من نفيهم الصفات ، وقولهم : إنه عليم بالذات لا بعلم زائد على الذات ، وما يجرى مجراه ، فمذهبهم فيها قريب من مذهب المعتزلة ولا يجب تكفير المعتزلة بمثل ذلك .

وقد ذكرنا فى كتاب : " فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة " ما يتبين فيه فساد رأى من يسارع إلى التكفير فى كل ما يخالف مذهبه .

٥- وأما السياسات : فمجموع كلامهم فيها يرجع إلى الحكم المصلحية المتعلقة بالأمور الدنيوية ، والأيالة السلطانية ، وإنما أخذوها من كتب الله المنزلة على الأنبياء ومن الحكم المأثورة عن سلف الأنبياء .

٦- وأما الخلقية : فجميع كلامهم فيها يرجع إلى حصر صفات النفس وأخلاقها ، وذكر أجناسها ، وأنواعها ، وكيفية معالجتها ، ومجاهدتها .

=الفلسفة فى الإسلام تأليف دى بور ترجمة وتعليق د. محمد عبد الهادى أبو ريدة ص ٢٣٤ ط . خامسة ، بيروت .
فلم يبق إلا ابن سينا .

وإنما أخذوها من كلام الصوفية ".[1]

ولقد كان فى عصرهم ، بل فى كل عصر ، جماعة من المتأهلين ، لايخلى الله سبحانه العالم عنهم ـ أ . هـ .

وهكذا كانت رؤية الغزالى واضحة لما يقبل من الفلسفة ، وما يرفض ، وما وراء المقبول من آفات ، وما وراء المرفوض من أخطار ، فلم يحارب فى غير ميدانه ، ولم يوجه أسلحته لغير عدوه .

وكان عدوه ـ كما رأينا ـ الجانب (الميتافيزيقى) فأفرغ جهده فى نقضه وبيان تهافته ، حتى بعض الموضوعات التى يوافق فيها الفلاسفة مثل خلود النفس أراد أن يبين عجزهم عن إقامة الأدلة عليها ، وذلك ليبرز وجه الضرورة إلى الدين .

من أجل هذا كله ، كسب الغزالى المعركة مع الفلسفة ، وكسدت من بعده بضاعتها التى طالما نفقت سوقها ، وكانت ضربته لها ـ فيما يرى الكثيرون من مؤرخى الفكر ـ ضربة قاصمة ، إصابتها فى الصميم .

أقل ما يقال فيها : إنها أزالت عنها هالة القدسية التى

(١) كلام الغزالى عن الفلسفة السياسية والخلقية مجمل ، يحتاج إلى تفصيل وتقييد ، ولا يؤخذ على إطلاقه .

كانت لها فى أنفس الكثيرين قبل الغزالى ، فلم تعد (الوثن) الذى يرهب ولايمس ، بل تجرأ الكثيرون عليه ويكفى الغزالى أنه وضع الفلسفة فى (قفص الاتهام) ، واضطرهـا أن تقـف (موقف الدفاع) عن نفسها ، بعـــد أن كانـت من قبــل فى (موقف الهجوم) .

لم يكن الغزالى يريد بهدم الفلسفة أن يبنى نظرية له ، أو مذهبا خاصا به ، إنما يريد أن ينقض الفلسفة ليقيم الدين ، وأن يعلن هزيمتها لينصر الدين أو (ليحيى علوم الدين) ، وليثبت بمنطق العقل نفسه ، وسلاح الفلسفة ذاتها : أن مضى العقل وحده ، دون الاهتداء بنور الوحى ، لايؤدى إلاَّ إلى التيه فى بيداء التناقض والحيرة .

نقض الفلسفة لايعنى التنكر للعقل :

ومن الظلم البين للغزالى أن يتهم بأنه إذ نقض الفلسفة ، فقد نقض العقل وتنكر له ، ولم يخرج عن دائرة التقليد ، كما يتوهم ذلك بعض الدارسين المتعجلين ممن كتبوا عن الغزالى وقالوا : إنه بكتابه " التهافت " قد أعلى صوت (الإيمان) على (العقل) .

والحق أنه أعلى به صوت (العقــل) الناقـد المستقـل على

(العقل) المتأثر المقلد ، المسلم لآراء الكبار دون امتحانها ، وإعلاء صوت العقل المستقل - فى نظر الإسلام - يعنى إعلاء صوت الإيمان أيضا ، ولاتنافى فى الإسلام بين العقل والإيمان .

ومن هنا ظل الغزالى يعلن أن العقل أساس النقل ، فلولاه ما ثبتت النبوة والشريعة ، وهو يرفض التقليد فى الاعتقاديات ، ويشك فى الأفكار التقليدية الموروثة عن الفرق والمذاهب المختلفة التى يلقنها الناس ، ويأخذونها عمن سبقهم قضايا مسلمة لا تحتمل الجدل ولا الشك .

كرر هذا فى أكثر من كتاب من كتبه ، وفى مناسبات عدة .

وحسبنا هنا كلماته المضيئة فى كتابه (ميزان العمل) ، حيث يدعو إلى طلب الحق بطريق النظر والفكر المستقل ، لا بطريق التقليد الأعمى لزيد أو عمرو من الناس .

وفى ذلك يقول : " فجانب الالتفات إلى المذاهب ، واطلب الحق بطريق النظر ، لتكون صاحب مذهب ، ولا تكن فى صورة أعمى ، تقلد قائدا يرشدك إلى الطريق ، وحولك ألف مثل قائدك ينادون عليك بأنه أهلكك وأضلك عن سواء السبيل ! ، وستعلم فى عاقبة أمرك ظلم قائدك ، فلا خلاص إلا فى الاستقلال .... ولو لم يكن فى مجارى هذه الكلمات إلا ما

يشككك فى اعتقادك الموروث . لتنتدب للطلب ، فناهيك به نفعا !، إذ الشكوك (يعنى فى الموروثات) هى الموصلة إلى الحق ، فمن لم يشك لم ينظر ومن لم ينظر لم يبصر ، ومن لم يبصر بقى فى العمى والضلال [1].

موقف الغزالى بين العقل والنقل :

ويؤكد الغزالى هنا مبدءا مهما ـ عمقه ووسعه ابن تيمية بعد[2]، على اختلاف بينهما فى تطبيقه ـ وهو أنّ العقل والشرع لا يتعارضان تعارضا حقيقيا من الناحية النظرية ، لأن كليهما نور من عند الله ، فلا ينقض أحدهما الآخـر، ولامن الناحية العملية ، فلم يثبت أن اصطدمت حقيقة دينية بحقيقة عقلية ، بل يرى الغزالى أن أحدهما يؤيد الآخر ويصدقه[3] .

(١) ميزان العمل بتحقيق د . سليمان دنيا ط القاهرة ٩ . ٤ .

(٢) فى كتابه الكبير (درء تعارض العقل والنقل) ، وقد نشرته أخيرا جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض فى عشرة أجزاء ، بتحقيق الدكتور محمد رشاد سالم ، وهو الكتاب الذى عرف حينا باسم (موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول) .

(٣) فى (معارج القدس) ـ وهو ينسب إلى الغزالى ـ تقرأ هذه الفقرة :
" اعلم أن العقل لن يهتدى إلا بالشرع ، والشرع لم يتبين إلا بالعقل فالعقل كالأس ، والشرع كالبناء ، ولن يغنى أس ما لم يكن بناء ، ولن يثبت بناء مالم يكن أس .
وأيضا ، فالعقل كالبصر ، والشرع كالشعاع ، ولن يغنى البصر مالم يكن شعاع من خارج ، ولن يغنى الشُعَاعُ ما لم يكن بصر . =

بل نراه فى (المستصفى) وهو من أواخر ما صنف ، يعتبر العقل قاضيا ، والشرع شاهدا ، حيث يقول بعد الديباجة : " أما بعد ، فقد تناطق قاضى العقل ، وهو الحاكم الذى لايعزل ولايبدل ، وشاهد الشرع ، وهو الشاهد المزكى المعدل بأن الدنيا دار غرور ، لا دار سرور .... ومحل تجارة ، لامسكن عمارة ، ومتجر بضاعتها الطاعة ، والطاعة طاعتان : عمل وعلم ، والعلم أنجحها وأربحها ، فإنه أيضا من العمل ، ولكنه عمل القلب الذى هو أعز الأعضاء ، وسعى العقل الذى هو أشرف الأشياء لأنه مركب الديانة ، وحامل الأمانة ، إذ عرضت على الأرض والجبال والسماء ، فأشفقن من حلمها وأبين أن يحملنها غاية الإباء " [1].

وها هو فى (الإحياء) نراه يدعو إلى المزج بين العلوم العقلية والعلوم الدينية ، يبين الحاجة إلى كل منهما ، ويقرر أن لاغنى بالعقل عن السمع ، ولا غنى بالسمع عن العقل :

= فالشرع عقل من خارج ، والعقل شرع من داخل ، وهما متعاضدان ، بل متحدان" (معارج القدس ص ٥٧ ، ط دار الآفاق الجديدة ، بيروت) .

والكلام هنا شبيه بكلام الغزالى ، ولكنى أشك كثيرا فى صحة نسبة الكتاب إليه ، فنفسه غير نفس الغزالى فى كتبه ، وطريقة تقسيمه وترتيبه غير طريقة الغزالى ، ولم يذكره أحد فى كتبه ممن ترجموا له ـ كما أنه لايحيل ولا يشير إلى أى كتاب آخر له ، كما هو شأنه فى كتبه الأخرى ، كما لم يشر إليه فى أى كتاب من كتبه ، وجعله د. بدوى ، فى جملة الكتب المشكوك فى صحة نسبتها للغزالى . رقم ٧٦ ص ٢٤٤ من (مؤلفات الغزالى) .

(١) المستصفى جـ ١ ص ٣ .

" فالداعى إلى محض التقليد مع عزل العقل بالكلية - جاهل ، والمكتفى بمجرد العقل عن أنوار القرآن والسنة مغرور ، فإياك أن تكون من أحد الفريقين ، وكن جامعا بين الأصلين .

فإن العلوم العقلية كالأغذية ، والعلوم الشرعية كالأدوية ، والشخص المريض يستضر بالغذاء متى فاته الدواء ، فكذلك أمراض القلوب ، لايمكن علاجها إلا بالأدوية المستفادة من الشريعة ..... "(١) .

ثم يحمل الغزالى بقوة على من يظن أن ثمت تناقضا بين العقليات والشرعيات فيقول :

" وظن من يظن أن العلوم العقلية مناقضة للعلوم الشرعية ، وأن الجمع بينهما غير ممكن ، هو ظن صادر عن عمى فى عين البصيرة ، نعوذ بالله منه .

بل هذا القائل ربما يناقض عنده بعض العلوم الشرعية لبعض فيعجز عن الجمع بينهما ، فيظن أنه تناقض فى الدين ! فيتحير به ، فينسل من الدين ، انسلال الشعرة من العجين ! دائما ذلك ، لأن عجزه فى نفسه خيل إليه نقصا فى الدين وهيهات ! "(٢) .

---

(١) الإحياء جـ ٣ ص ١٧ ، ط دار المعرفة .
(٢) المصدر السابق .

وهو يصف عصابة الحق وأهــل السنــة فى مقدمــة كتــاب (الاقتصاد فى الاعتقاد) بأنهم وحدهم الذين اهتدوا إلى أسرار ما أنزل الله على رسوله ، واطلعوا على طريق التلفيق[1] بين مقتضيات الشرائع وموجبات العقول ، وتحققوا أن لا معاندة بين الشرع المنقول والحق المعقول ، وعرفوا أن من ظن من الحشوية وجوب الجمود على التقليد واتباع الظواهر ، ما أتوا به إلا من ضعف العقول ، وقلة البصائر ، وأن من تغلغل من الفلاسفة و (غلاة) المعتزلة فى تصرف العقل ، حتى صادموا به قواطع الشرع [2]، ما أتوا به إلا من خبث الضمائر ، فميل أولئك إلى التفريط وميل هؤلاء إلى الإفراط ، وكلاهما بعيد عن الحزم والاحتياط ، بل الواجب المحتوم فى قواعد الاعتقاد ملائمة الاقتصاد ، والاعتماد على الصراط المستقيم " .

ويذكر الغزالى هنا مثالا للعقل والشرع ، فمثال العقل : البصر السليم من الآفات ، ومثال القرآن : الشمس المنتشرة الضياء ، ولايستغنى بأحدهما عن الآخر ، إلا من كان فى غمار الأغبياء " فالمعرض عن العقل مكتفيا بنور القرآن مثاله

---

(١) كلمة (التلفيق) يعنى بها ما تعنيه بكلمة (التوفيق) الآن ، وليس يعنى بها ما يوحى به اللفظ فى عرفنا اليوم من الاحتيال علـى الجمع بين متنافرين .

(٢) أنكر د. عادل العوا فى تقديم كتاب (الاقتصاد فى الاعتقاد) على الغزالى ضمه المعتزلة إلى الفلاسفة فى العزوف عن الاستضاءة بنور الشرع وقال : إنهم متكلمون والمتكلمون هم حراس العقيدة بالعقل ولكن عبارة الغزالى لاتشمل كل المعتزلة بل الغلاة منهم ، فلا وجه للاعتراض .

المتعرض لنور الشمس ، مغمضا للأجفان ، فلا فرق بينه وبين العميان فالعقل مع الشرع نور على نور ، والملاحظ بالعين العوراء لأحدهما متدلل بحبل غرور "[1] .

فلا يجوز إذن نصب العقل عدوا للشرع ، ولا نصب الشرع عدوا للعقل .

ولايتصور أن يثبت الشرع ماينفيه العقل (أى مايقطع باستحالته) ، ولا أن ينفى ما يثبته العقل ، أى مايقيم البراهين اليقينية على وجوده .

والعكس ثابت أيضا ، بمعنى أن العقل لايتصور أن يثبت مايقطع الشرع بنفيه ولا أن ينفى ما يقطع الشرع بثبوته .

وبعبارة موجزة يرى الغزالى : أن العقل لايمكن أن يثبت حقيقة ينفيها الشرع ، وأن الشرع لا يمكنه أن يأتى بعقيدة يحيلها العقل .

وإذا وقع شئ من ذلك فلابد أن يكون من جاهل متوهم على العقل ، أو متوهم على الشرع .

---

(١) من مقدمة كتاب (الاقتصاد فى الاعتقاد) .

وما كانت حملته فى (التهافت) على الفلاسفة إلا لأنهم توهموا على العقل ، فأثبتوا باسمه ، مالا برهان عليه ، ونفوا تحت مظلته مالا دليل على نفيه ، وجاءوا بما لا يقبل فى العلوم الظنية ، فكيف يقبل فى العقليات ؟! .

وقد رأينا حملته فى (المنقذ) على من سماه (الصديق الجاهل) للإسلام الذى أنكر ـ باسم الشرع ـ ما قاله الفلاسفة فى الكسوف والخسوف ، ونحو ذلك مما يتصل بالعلوم الرياضية ، من شعب الفلسفة القديمة ، مع أن أدلتها برهانية يقينية لا سبيل إلى مجاحدتها .

ومع تقرير هذا المبدأ ـ عدم تعارض العقل والشرع ـ أوضح أن لكل من العقل والشرع اختصاصا ، أو دائرة ينفذ فيها سلطانه ، ولايتجاوزه .

وجعل الغزالى من اختصاص العقل إثبات أعظم قضيتين من قضايا الفلسفة وأخطر قضايا الدين ، وهما : وجود الله ، وثبوت النبوة .

فوجود الله وقدرته وإرادته وعلمه إنما يثبت بالعقل ، ومالم يثبت ذلك بالعقل لم يثبت الشرع [1].

---

(١) الاقتصاد فى الاعتقاد ، ط دار الأمانة ص ١٩٨، بيروت .

وكذلك بيان أن هذا العالم من فعله الجائز فى حقه ، وأن بعث الرسل من أفعاله الجائزة ، وأنه قادر عليه وعلى تعريف صدقهم بالمعجزات ، لأنه تعالى لا يضل عباده ، وأن هذا الجائز واقع .

وبهذا يدل العقل على صدق النبى ، ثم يعزل العقل نفسه عندئذ ، وينتهى تصرفه ، ويعتـرف بأنه يتلقى من النبى بالقبول ، مايقوله فى الله واليوم الآخر ، مما لا يستقل العقل بإدراكه ، ولايقضى أيضا باستحالته [1].

وبهذا يرى الغزالى أن وظيفة العقل إثبات الشرع ، عن طريق إثبات خالق العالم ، وإثبات النبوة التى يمنحها لمن يصطفى من عباده ، فإذا ثبت الوحي من الله ، كان من واجب العقل بعد ذلك أن يتلقى منه ، لا أن يعترض عليه ، وبتعبير الغزالى : (يعزل العقل نفسه) من منصب القضاء فى أمر الدين ، ليقول فى الاعتقاديات : آمنا وصدقنا ، ويقول فى العمليات : سمعنا وأطعنا .

وإنما عزل العقل نفسه هنا ليتلقى من مشكاة النبوة ووحى الله إلى نبيه ، لأن الوحى معصوم ، والعقل لا عصمة له ، والعقل وإن كان نورا ، ففرق كبير بينه وبين نور النبوة . فهداية

---

(١) انظر : المستصفى جـ ١ ص ٦ .

النبوة فوق هداية العقل ، أو هى - على حد تعبيره - طور وراء العقل ، تنفتح فيه عين يدرك بها مدركات ، والعقل معزول عنها ، كعزل السمع عن إدراك الألوان،والبصر عن إدراك الأصوات ، وجميع الحواس عن إدارك المعقولات [٢].

وهو آثر طريق الصوفية : لأنهم - فى نظره - فى حركاتهم وسكناتهم وظاهرهم وباطنهم مقتبسون من نور مشكاة النبوة ، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به [٣].

وعزل العقل نفسه بعد ثبوت النبوة والوحى ، لا يعنى إلغاء دوره بالمرة ، فهذا لم يقل به الغزالى ولا أحد من أئمة الإسلام .

فالعقل هو المكلف بتفسير النصوص ، واستنباط الأحكام منها ، ومما لانص فيه ، ووضع الأصول الضابطة لذلك ، وتأويل ما يحتمل التأويل منها ، إذا تعارضت الظواهر مع القواطع العقلية ، وإزالة التعارض بين بعضها وبعض .. إلى غير ذلك مما يعمل فيه العقل .

يقول الغزالى :

" وكل ماورد السمع به ينظر .. فإن كان العقل مجوِّزا له

---

(١) المنقذ ص ١٥٩ بتقديم د. عبدالحليم محمود .

(٢) المنقذ ص ١٤٣ بتقديم د. عبد الحليم محمود .

وجب التصديق به قطعا إن كانت الأدلة السمعية قاطعة فى متنها ومستندها ، لايتطرق إليها احتمال .

ووجب التصديق بها ظنا إن كانت ظنية .

وأما ما قضى العقل باستحالته ، فيجب فيه تأويل ما ورد السمع به ، ولا يتصور أن يشمل السمع على قاطع مخالف للمعقول .

فإن توقف العقل فى شئ من ذلك ، فلم يقض فيه باستحالة ولاجواز ، وجب التصديق أيضا لأدلة السمع ، فيكفى فى وجوب التصديق انفكاك العقل عن القضاء بالإحالة " [١].

وعلى هذا الأساس طبق الغزالى ما جاء به الشرع من سؤال القبر ونعيمه وعذابه ، ومن الحشر والنشر ، والصراط والميزان ونحوها من أمور الآخرة ، فهى أمور ممكنة فى نظر العقل ، دلت عليها قواطع السمع ، فوجب التصديق بها .

وما يثيره بعض الناس من شبهات عقلية حولها ، فالغزالى يردها بمنطق العقل أيضا .

---

(١) الاقتصاد فى الاعتقاد ص ١٩٨ ، ١٩٩٧ ط دار الأمانة ، بيروت .

فهذا هو موقف العقل فى مجال (العقائد) .. وربما اتهم الغزالى من بعض خصومه ـ ولاسيما من المدرسة السلفية ـ بأنه استخدم العقل فى (التأويل) أكثر مما ينبغى .

وللعقل دور كذلك لاينكر فى مجال (العمليات) فى الفقه والأصول ، التى يجتمع فيها العقل والشرع فى نظر الغزالى ، وهى أفضل العلوم فيما يرى .

يقول فى مقدمة كتابه (المستصفى) وقد صنفه قبل وفاته بنحو عامين ، بعد أن قسم العلوم إلى عقلى محض ، كالحساب والهندسة ، وإلى دينى محض كالحديث والتفسير ، قال : وأشرف العلوم : ما ازدوج فيه العقل والسمع ، واصطحب فيه الرأى والشرع ، وعلم الفقه وأصوله من هذا القبيل ، فإنه يأخذ من صفو الشرع والعقل سواء السبيل[1] .

لكن الغزالى يرى فى مجال (العمليات) أن هناك (منطقة محرمة) يجب على العقل ، أن يعزل نفسه عنها وهى : إدراك الحكم التفصيلية للعبادات الشرعية التى ينظر إليها الغزالى على أنها ـ بحدودها ومقاديرها المحددة المقدرة من جهة الأنبياء ـ أدوية ربانية (لايدرك وجه تأثيرها ببضاعة عقل العقلاء بل يجب فيها تقليد الأنبياء ، الذين أدركوا تلك

(١) مقدمة المستصفى جـ ١ ص ٣ .

الخواص ، بنور النبوة ، لا ببضاعة العقل .....) .

فلا يستطيع العقل أن يدرك لماذا كان السجود فى الصلاة ، ضعف الركوع وصلاة الصبح نصف صلاة العصر ، ونحو ذلك .. فهذا من قبيل الخواص التى لا يطلع عليها إلا بنور النبوة .

قال : (ولقد تحامق وتجاهل جدا من أراد أن يستنبط ـ بطريق العقل ـ لها حكمة ، أو ظن أنها ذكرت على الاتفاق ، لا عن سر إلهى فيها ، يقتضيها بطريق الخاصية)[1] .

وماعدا ذلك فإن العقل يصول ويجول ، فى استنباط الأحكام من النصوص التى تختلف فيها الأفهام ، وتتفاوت العقول ، أو مما لا نص فيه عن طريق القياس وغيره من أدوات الاجتهاد .

وقارئ فقه الغزالى أو أصوله ، أو كلامه ، أو تصوفه ، أو منطقه ، يرى أنه لم يتخل عن العقل يوما ، ولكنه العقل الذى يعرف حدوده ، ولايحرم نفسه من نور أعظم منه وهو نور الوحى الإلهى ، الذى قطع العقل نفسه بثبوته .

بهذا ظل الغزالى وفيا للعقل ، مؤمنا بمهمته فى الدين ، كمهمته فى الدنيا ، داعيا إلى الجمع بين مقررات الشرائع

(١) المنقذ ص ١٥٢ .

وموجبات العقول ، أو بين الشرع المنقول والحق المعقول ، مع الاعتراف بأن لكلّ منهما سلطانًا لا يتعداه .

وبهذا نتبين ، أن الغزالى بهجمته على الفلسفة الإلهية التقليدية ، لم يتنكر للعقل ولا حرم المسلمين من فلسفة حقيقية أصيلة حين تصدى لنقض الفلسفة اليونانية ، فى صورتها العربية أو الإسلامية كما تسمى ، والذين يقولون هذا غالطون أو مغالطون .

فما كانت فلسفة الفارابى وابن سينا ، أو فلسفة (إخوان الصفا) فلسفة إسلامية حقا كما يقول الباكون أو المتباكون عليها .

إن منابعها لم تكن هى الإسلام ، ومنطلقها لم يكن هو الإسلام ، ومقاييسها لم تُبْنَ على الإسلام ، فكيف تنسب إليه ، وتحسب عليه ؟

كل ما يصلها بالإسلام أنها إنتاج بعض أبنائه ، وأنها نشأت فى أرضه وكتبت بلغته ، أعنى لغة كتابه ، وهى العربيـة .

ولانريد أن نصل إلى حد القول بأنها الفلسفة اليونانية

كتبت بلغة عربية ، كما قال قائلون ، ففى ذلك تحامل وتجن ظاهر .

إنما نقول : أن جوهرها تمثل فى محاولات التوفيق بين الدين والفلسفة أو بين الحكمة والشريعة ، كما يعبر ابن رشد ، كما نجد ذلك فى محاولات الفارابى وابن سينا ، التى هدفت إلى الجمع بين آراء المدرسة المشائية المصبوغة بالأفلاطونية الجديدة ـ كما نقلها تراجمة السريان وغيرهم ـ وبين معتقدات الإسلام ، وتصوراته الكلية للألوهية والنبوة والجزاء ، فإذا تعارضت معطيات الدين ، ومعطيات الفلسفة اعتمدت الفلسفة ، وتؤول الدين ! فالفلسفة عندهم أصل ، والدين تابع ، وما جاء به محمد رسول الله ـ صلى الله عليه سلم ـ يجب أن يفهم فى ضوء ما جاء به أرسطو (المعلم الأول) عند القوم !

وأدنى من ذلك محاولات (إخوان الصفا) التى كانت أقرب إلى التلفيق منها إلى التوفيق ، كما يقول الدكتور حمودة غرابة رحمه الله فى كتابه (ابن سينا بين الدين والفلسفة) .

الغزالى الفيلسوف :

والحق أن الغزالى فى (إحيائه) و (منقذه) و (مستصفاه) وبعض كتبه الأخرى ، ـ على ما فيها من مآخذ ـ

أقرب إلى تمثيل (الفلسفة الإسلامية) من الممثلين الرسميين التاريخيين لها .

كما أنه فى كثير من نظراته النفسية والاجتماعية والتربوية يعد صاحب فلسفة متميزة هى عند التحقيق أهم من الفلسفة التقليدية المستمدة فى أصولها من الإغريق .

إن الغزالى بهدمه الفلسفة قد غدا فيلسوفا ، ولكن بمعيار آخر ، ومن منطلق آخر ، إنه لم يعد تابعا ، بل أصيلا مستقلا ، إنه فيلسوف وإن لم يرد أن يكون فيلسوفا ، ولعله لو سئل ـ كما قال الأستاذ العقاد [١] ـ أأنت فيلسوف ؟ لأنكر ذلك .

وهذا أمر اعترف به كثيرون فى الشرق والغرب ، حتى قال الفيلسوف الشهير (رينان) : " لم تنتج الفلسفة العربية فكرا مبتكرا كالغزالى "[٢] يريد أن (الفلاسفة الإسلاميين) قبله وبعده كانوا أتباعا للفلسفة الأرسطية أو الأفلاطونية الحديثة ، وأن الغزالى وحده هو الذى ثار عليها ، واتخذ له نهجا خاصا .

---

(١) فى محاضرته فى الأزهر عن (فلسفة الغزالى) وكتب فيه عدة كتب ، مثل (معيار العلم) و (محك النظر) و (القسطاس المستقيم) .

(٢) عبده الشمالى : دراسات فى تاريخ الفلسفة العربية الإسلامية ورجالها ص ٥٥٣ .

وقد رأى كثير من علماء المسلمين قديما أن الغزالى رغم حربه للفلسفة لم يزل متأثرا بها ، حتى قال تلميذه القاضى ابن العربى : شيخنا أبو حامد بلع الفلاسفة ، ثم أراد أن يتقيأهم ، فما استطاع [1]!

وحسبنا أن أحد دعائم الفلسفة وهو (المنطق) ، قد تبناه الغزالى ودافع عنه ، وأضفى عليه من ثقافته الإسلامية ، وكتب فيه عدة كتب ، مثل (معيار العلم) و (محك النظر) و (القسطاس المستقيم) وقد أعلن أن تعلمه فرض كفاية ، كما جعله مقياسا لصحة العلوم كلها ، حتى علوم الدين نفسها ، وذهب إلى أن من فقد هذا المعيار لا ثقة بعلمه ، حتى جلب ذلك عليه سخط كثير من علماء المسلمين من مختلف المدارس والعقليات ، من ابن الصلاح ، إلى ابن تيمية ، الناقد المنهجى الموضوعى للمنطق الأرسطى .

وإذا كان صحيحا ما نادى به شيخ مؤرخى الفلسفة الإسلامية فى العصر الحديث - وهو الشيخ مصطفى عبد الرازق - من اعتبار (علم أصول الفقه) أحد أركان هذه الفلسفة بل فى مقدمتها - وهو صحيح ومسلم به الآن من دارسى الفلسفة - فالغزالى ولاشك أحد أعمدة هذا العلم

(١) سيرة الغزالى لعبد الكريم عثمان ، نقلا عن (مقارنة بين الغزالى وابن تيمية) ، للدكتور / محمد رشاد سالم .

ومراجعه . وحسبنا فيه (المستصفى) .

ويحق ما قاله الأستاذ العقاد رحمه الله عن (فلسفة الغزالى) فى محاضرته بالأزهر : لو سئل الغزالى : هل أنت فيلسوف ؟ لأنكر انتسابه إلى القوم الذين يبطل حجتهم ، ويدحض آراءهم ، ويقضى على أقوالهم بالتهافت ، وهو الضعف الذى لا يقوى المتصف به على التماسك والثبوت .

لكننا ننظر إلى أقوال الغزالى فى مناقشته للفلاسفة ، فنعلم أنه ناقش الفلسفة بالفلسفة ، وحطم السلاح بسلاح مثلـه ، بيد أنه أنفذ وأمضى ، فهو على هذا فيلسوف أقدر من الفلاسفة الذين أبطل حجتهم .

والواقع أن حجة الإسلام رضى الله عنه لم تكمل له أداة قط كما كملت له أداة الفلسفة ، فهو عالم ، وهو فقيه ، وهو متكلم ، وهو صوفى ولا مراء ، ولكن هذه المطالب لاتستغرق كل ملكاته ووسائله إلى المعرفة ، قد يبلغ فيها غايتها ببعض تلك الملكات والوسائل ، وتبقى له بعدها ملكة لا ضرورة لها فى غير الفلسفة وحدها ، وأوجز ما يقال عنها بكلمة واحدة : أنها هى ملكة التجريد .

ويرى العقّاد أن تصوف الغزالى ـ الذى قطع معه علائق

قلبه بالدنيا ، وهرب به من الشواغل والعلائق ، وأقبل بكنه همته على الله ، ووصل معه إلى حالة يستوى فيها عند القلب وجود كل شئ فى هذا الكون وعدمه ـ هذا التصوف قد منحه قدرة على التفكير الفلسفى الحر ، والتأمل العقلى العميق ، الذى لايتاح مثله لمن يفكر وهو رهن محابس الماديات والشهوات .

وبهذه القدرة على التجرد من النفس وعاداتها ومألوفاتها أصبح الغزالى أقدر على (التجريد الذهنى) من المتصوف الذى لا يشغل فكره باستقصاء البحث ، ومن الفيلسوف الذى لايروض نفسه على الفرار من تحكم (الذاتية) ولوازم الأشياء التى لا تفارقها فى حسه وفى إدراكه ، فلا جرم ، كانت السليقة الصوفية فيه أداة يغلب بها الفيلسوف الذى لا تصوف عنده ، وكان التفكير المنتظم عنده أداة تعينه على الفهم حيث يقنع المتصوف بالتسليم ويستريح إليه .

ويختم العقاد محاضرته عن الغزالى بهذا التساؤل : هل كان إمامنا رضى الله عنه فيلسوفا أم متصوفا ؟ [1]

ويجيب بقوله :

" إنه كان قدوة للفلاسفة ، ونموذجا من نماذج التفكير

---

(١) فلسفة الغزالى ـ محاضرة ألقاها العقاد فى قاعة المحاضرات بالأزهر فى ١٧ رمضان ١٣٧٩ هـ .

الرفيـع ، نتعلم منه أن الفلسفة أداة لاتتم بغير قسط من التصوف ، لأن التصوف قدرة على انتزاع النفس من المألوف ، وتلك قدرة لايستغنى عنها الفيلسوف المفكر ولا الفيلسوف الحكيم " .

الغزالي والباطنية :

وكان للغزالي ـ بجوار دوره فى نقض الفلسفة ـ دور آخر فى الرد على فرقة (الباطنية) التى تدرعت بالفلسفة ، وظهرت فى مظهر دينى وسياسى ، فكانت ـ كما يقول الأستاذ الندوى ـ أشد خطرا على الإسلام من الفلسفة ، فقد كانت الفلسفة تعيش فى برجها العاجى بعيدا عن الشعب والجمهور ، وكانت ـ كما يصفها الأستاذ أحمد أمين ـ كالسفارات الأجنبيـة ، لاشأن لهـا بالسيـاسـة الـداخليـة ، والشئـون الاجتماعية ، ولا صلة لها بجمهور الناس [1].

والباطنية ـ كما ذكر الغزالي ومن بعده ابن الجوزى ـ قوم تستروا بالإسلام ومالوا إلى الرفض ، وعقائدهم وأعمالهم تباين الإسلام بالمرة ، فمحصول قولهـم تعطيـل الصـانـع ، وإبطـال النبوة ، والعبادات ، وإنكار البعث ، ولكنهم لا يظهرون هذا فى أول أمرهم ، بل يزعمون أن الله حق ، وأن محمدا رسول

(١) رجال الفكر والدعوة ص ٢١٦ .

الله ، وأن الدين صحيح ، لكنهم يقولون : إن للدين سرا وباطنا غير ظاهره الذى يعرفه عامة الناس [1].

وذكر ابن الجوزى السبب الباعث لهؤلاء على إنشاء هذه النحلة ، وبين أن غرضهم هو هدم الإسلام ، تحت ستار الدعوة إلى الإمام المعصوم ، والأسرار الباطنة .

كما بين حيلهم وطرائقهم فى اجتذاب الناس إلى مذهبهم ، كل حسب ميوله واتجاهاته الفكرية والشعورية والسلوكية .

فمن كان مائلا إلى الزهد دعوه إلى الأمانة والصدق وترك الشهوات .. ومن كان مائلا إلى الخلاعة ، قرروا فى نفسه أن العبادة بله ، وأن الورع حماقة ، وإنما الفطنة فى اقتناص اللذات من هذه الدنيا الفانية [2] وهكذا يخاطبون كل ذى مذهب بما يليق به ، إلى أن يقع فى أحابيلهم ، ويصبح رهن إشارتهم .

وخطر هذه الفرقة أنها تهدم من الداخل ، وتعمل فى الخفاء ، وتضمر الكيد للإسلام وتتظاهر إليه ، وتساند كل مغير على أمة الإسلام ، ودار الإسلام . وتجمع الأنصار ، وتدريبهم على القتل والقتال ، وفن الاغتيال ، وتستخدم سلاح

(١) تلبيس إبليس ص ١٠٢ .
(٢) نفسه ص ١٠٦ ـ ١٠٧ .

الإرهاب بمهارة منقطعة النظير .

وقد انضم إلى هذه الفرقة أعداد من الناس بدوافع مختلفة .

منهم من دفعه إليهم بغض الدولة العباسية القائمة ، وما يعانونه فى ظلها من جور .

ومنهم من دفعه إليهم حب آل البيت والغضب لهم ممن ظلموهم ، وكانت الباطنية تنشر دعوتها باسمهم وتدعو إليهم .

ومنهم من اندفع وراء إشباع الرغبات ، والتهام اللذات ، التى يتيحها هؤلاء لأتباعهم ، ويبررونها باسم الدين كما يتصورونه ويصورونه .

ومنهم من دفعته الرغبة فى الإسرار والغوامض ، والرموز ، التى يقوم عليها دين هؤلاء ولاسيما مع انتشار الحرفية والظاهرية عند الآخرين ، والتمسك بالقشور وإنكار كل مازاد عليها[1] .

ومهما كانت الدوافع والأغراض فقد كسبت الباطنية شيعا وأنصارا يتحكم فيهم رؤساؤها ، ويحركونهم كالخاتم فى الأصبع ، ويستعملونهم فى الإرهاب والتدمير ، حتى استفحل أمرهم بأصبهان وآل الأمر ـ كما قال ابن الجوزى ـ إلى أنهم كانوا يسرقون الإنسان ، ويقتلونه ويلقونه فى البئر ، وكان

(١) رجال الفكر والدعوة ص ١٧٤ .

الإنسان إذا دنا وقت العصر ولم يعد إلى منزله أيسوا منه [1].

وبهذا غدت الباطنية مؤسسة سرية عسكرية خطرة ، مغلفة بغلاف علمي فكرى يخدع بريقه الأبصار ، بدعوى أنهم أهل الأسرار ، ولديهم وحدهم الإمام المعصوم ، الذى لايصلح العالم ، ولا تستقيم الحياة بدونه !

ولم يكن هناك أحق ولا أقدر من الغزالى بالرد عليها ، والكشف عن عوارها ، وتفنيد دعاويها ، ونقض مبانيها من قواعدها ، وذلك لجمعه بين العلوم الشرعية ، والعلوم العقلية من الفلسفة ، والمنطق ، والكلام ، وتبحره فيها جميعا ، ولهذا كتب عدة كتب فى الرد عليهم على فترات مختلفة ، منها " فضائح الباطنية " الذى أثنى عليه الإمام ابن تيمية على الرغم من نقده للغزالى فى مواضع متعددة ، ونقل منه ابن الجوزى وغيره .

وقد قال فيهم كلمته التى سارت مسير الأمثال : " ظاهرهم الرفض وباطنهم الكفر المحض " ، فهم يتسترون بالتشيع وما هم من الشيعة فى شئ ، إنما هو قناع يخفون وراءه كفرهم ، وكيدهم لأهل الإسلام جميعا : سنيهم وشيعيهم .

---

(١) تلبيس إبليس ص ١١٠ .

وله فى الرد عليهم أكثر من كتاب أشار إليه في (المنقذ من الضلال) حين عرض لمذهبهم ، وما فيه من فساد وتلبيس ، وبين أنه لاحاصل عندهم ، ولاطائل تحت كلامهم ، ولولا نصرة الصديق الجاهل للحق ، ما انتهت هذه البدعة الباطلة ـ مع ضعفها ـ إلى ما انتهت إليه .

فمن الكتب التى أشار إليها :
كتاب (حجة البيان) ويسمى أحيانا (حجة الحق) ..
وكتاب (مفصل الخلاف) .
وكتاب (الدرج المرقوم بالجداول) .

فضلا عن كتاب (القسطاس المستقيم) وهو كتاب مستقل بنفسه ، مقصوده : بيان ميزان العلوم ، وإظهار الاستغناء عن الإمام المعصوم ، لمن أحاط به .

وذكر له أيضا كتاب (قاصم الباطنية)[1] و (مواهم الباطنية) ، وكلها أسهمت فى المعركة ضد هؤلاء الذين كانوا وبالا على العباد والبلاد .

ومما يذكر للغزالى هنا : استمراره على نقد هذه الطائفة ، وكشف اللثام عن تناقض أفكارها ، وفضائح أعمالها ، وسوء

(١) أشار إليه الغزالى فى كتاب (جواهر القرآن) ص ٢١ .

نواياها ، برغم ما كان معلوما فى ذلك الوقت أن هذا النقد قد يكلفه حياته ، وقد رأى بنفسه مصرع رجل الدولة الكبير ، الوزير نظام الملك وفخر الملك ـ ابن نظام الملك ـ أيضا ، وكان فخر الملك هو الذى ألح على الغزالى فى معاودة التدريس ، فلم يجد بدا أمام ضغطه من الإذعان .

وكان الباطنية يهددون كل من يرونه خطرا عليهم ـ من رجال الملك ، أو رجال العلم ـ بالانتقام ، فى صورة طعنة من خنجر ، أو سم يدس فى طعام ، أو غير ذلك من الأساليب التى أتقنوها ، ونفذوها بكل دقة .

وهذا إن دل على شئ فإنما يدل على شجاعة الغزالى فى صدعه بالحق ، ومواجهة الباطل ، مهما تكن النتيجة ولن يصيبه إلا ما كتب الله له .

الغزالى يدعو إلى تحرير الفكر من العصبية والتقليد :

وللغزالى مواقف أخرى ، تجلى شجاعته الأدبية ، وقوته فى الحق وإن خالف المألوف والمشهور ، فقد كان القرن الخامس الهجرى ـ الذى ظهر فيه الغزالى ـ قد استقرت فيه مذاهب وأقوال ، فى الكلام ، والفقه ، والتصوف والسلوك .

واشتهرت أسماء كبيرة فى كل هذه المجالات ، أصبح لها

أتباع ومقلدون ، لايقبلون من أحد الخروج عليها فى كثير أو قليل ، بل لا يقبلون مجرد نقدها أو مناقشتها .

وبذلك رسخت العصبية والتقليد للمذاهب والأقوال الموروثة ، وغدت (حمى محرما) لا يجوز الاقتراب منه ، وإلاّ هاج عليه الهائجون ، ورموه بالرماح والسهام من كل جانب .

وكان الناس فى حاجة إلى شخصية كبيرة لها وزنها ، تحرك العقول الراكدة من سكونها ، وتقاوم تحجر الفكر ، وتدعو إلى التحرر من أغلال التقليد والعصبية : شخصية لاتتهم بالقصور فى علمها ، ولا بالعجز فى فكرها ، ولا بالوهن فى دينها ، ولا بالتفريط فى سلوكها ، ولاتبالى بما يقول الناس عنها .

وكان الغزالى ـ بمؤهلاته العلمية والعملية ، وبتاريخه فى مقاومة الفلاسفة والباطنية ، وبكفاحه فى سبيل الوصول إلى اليقين والفناء عن النفس فى مرضاة الله ـ خليقا أن يسمع صوته ، ويلمس أثره ، فى هذا الميدان .

فكان هذا مأثرة أخرى من مآثر الغزالى ، داخل دائرة الفكر الإسلامى : الدعوة إلى التحرر من العصبية ، والانطلاق من سجن التقليد ، ورفض الجمود على آراء زيد أو عمرو من البشر غير المعصومين ، والانبهار بأسماء الكبار ، مهما تكن منزلتهم

فى العلم ، وشهرتهم فى الدين .

وهذا ما ذكره وكرره فى كثير من كتبه ، وفى مواضع متعددة منها ، وقد ذكرنا بعض ما يشهد لذلك ، عندما تحدثنا عن موقفه من (العقل) بعد موقفه من (الفلسفة) .

ولا بأس أن نؤكده هنا مرة أخرى ، بذكر بعض (الركائز) التى يعتمد عليها موقفه فى مقاومة تيار التقليد الغالب .

(١) : فهو ـ أولا ـ يدعو للنظر إلى القول لا إلى قائله ، والاعتداد بدليل الرأى لا بشهرة صاحبه ، وكم نقل وكرر حكمة الإمام على كرم الله وجهه ، التى قالها لكميل بن زياد : لاتعرف الحق بالرجال ، بل اعرف الحق تعرف أهله .

وطالما قال ـ إذا اعترض عليه بأنه خالف المشاهير من قبله ـ : من عرف الحق بالرجال ، حار فى متاهات الضلال [١] !

وهو بهذا يدعو إلى النظرة (الموضوعية) للأشياء والأفكار ، فلا نقبل الباطل لأنه جاءنا ممن نحب ، ولا نرفض الحق لأنه جاءنا ممن نكره ، فالمبطل لايبعد أن ينطق بحق ،

(١) الاحياء ـ كتاب العلم .

والمحق لايبعد أن يتكلم بباطل . ولما اعترض بعض الناس على كلمات له فى بعض تصانيفه فى أسرار علوم الدين ، زاعمين أنها من كلام (الأوائل) - يعنون الفلاسفة القدماء - رد عليهم الغزالى بأن بعضها من مولدات الخواطر ، وبعضها يوجد فى الكتب الشرعية ، وأكثرها موجود معناه فى كتب الصوفية ، ثم قال :

" وهب أنها لم توجد فى كتبهم ، فإذا كان الكلام معقولا فى نفسه ، مؤيدا بالبرهان ، ولم يكن على مخالفة الكتاب والسنة ، فلم ينبغى أن يهجر ، أو ينكر ؟ .

فلو فتحنا هذا الباب ، وتطرقنا إلى أن نهجر كل حق سبق إليه خاطر مبطل لزمنا أن نهجر كثيرا من الحق ، ولزمنا أن نهجر جملة آيات من القرآن ، وأخبار الرسول ، وحكايات السلف ، وكلمات الحكماء والصوفية ، لأن صاحب كتاب " إخوان الصفا " أوردها فى كتابه ، مستشهدا بها ومستدرجا قلوب الحمقى بواسطتها إلى باطله ، ويتداعى ذلك إلى أن يستخرج المبطلون الحق من أيدينا ، بإيداعهم إياه فى كتبهم !

وأقل درجات العالم : أن يتميز عن العامى الغمر فلا يعاف العسل ، وإن وجده فى محجمة الحجام ، ويتحقق أن المحجمة لا تغير ذات العسل ... "

ثم يبين الغزالى هنا أن رفض الشئ الحسن من أجل وعائه وظرفه ـ ومثله رفض الحق من أجل قائله ـ وهم باطل ، وهو غالب على أكثر الخلق ، فمهما نسبت الكلام ، وأسندته إلى قائل حسن فيه اعتقادهم ، قبلوه ، وإن كان باطلا ، وإن أسندته إلى من ساء فيه اعتقادهم ، ردوه ، وإن كان حقا

فأبدا يعرفون الحق بالرجال ، ولايعرفون الرجال بالحق ، وهو غاية الضلال [1]!!

(٢) : وهو ـ ثانيا ـ يدعو ويكرر الدعوة إلى التشكيك فى الأقوال الموروثة والمذاهب المتبعة ليزيل عنها ما أحيطت به مما يشبه (القداسة) أو (العصمة) ويضعها تحت محك الامتحان ، ليؤخذ منها ويترك .

وقد مر بنا قوله فى (ميزان العمل) :

" ولو لم يكن فى هذه الألفاظ إلا ما يشككك فى اعتقادك الموروث لكفى بذلك نفعا ! ، فإن من لم يشك لم ينظر ، ومن لم ينظر لم يبصر ، ومن لم يبصر بقى فى العمى والضلال ..." .

وقد طبق الغزالى بنفسه هذا المنهج ، فبحث وناقش ، وأخذ

(١) المنقذ من الضلال .

ورد ، وكانت له أفكاره الخاصة ، ومواقفه المستقلة ، التى خالف فيها من قبله .

خالف الأشعرى فى بعض مسائل الكلام .

وخالف إمامه الشافعى فى بعض مسائل الفقه ، كما نرى ذلك فى (الإحياء) فى مسألة (المياه) التى قال : كنت أود أن يكون مذهبه فيها كمذهب مالك ، وأيد مذهب مالك بسبعة أدلة [1].

وكذلك أيد مذهب أبى حنيفة فى جواز بيع المعاطاة ـ دون إيجاب وقبول ـ فى غير النفائس [2].

وخالف المتصوفة فى شطحاتهم وتهويماتهم غير المنضبطة بالشرع ولا العقل .

فقد أنكر فى (الإحياء) الدعاوى الطويلة العريضة فى العشق مع الله تعالى ، والوصال المغنى عن الأعمال الظاهرة ، حتى ينتهى بقوم إلى دعوى الاتحاد ، وارتفاع الحجاب ، والمشاهدة بالرؤية ، والمشافهة بالخطاب ، فيقولون : قيل لنا كذا ، وقلنا : كذا ، ويتشبهون فيه بالحسن بن منصور

---

(١) انظر : الإحياء جـ ١ كتاب الطهارة .

(٢) الإحياء جـ ٢ كتاب آداب الكسب والمعيشة .

الحلاج ، الذى صلب لأجل إطلاقه كلمات من هذا الجنس ، ويستشهدون بقوله : أنا الحق ! .... فهذا ومثله مما قد استطار فى البلاد شرره ، وعظم فى العوام ضرره ، حتى من نطق بشئ منه ، فقتله أفضل فى دين الله من إحياء عشرة ! [1].

وكانت مخالفته للأشعرى مما أثار حوله غبارا كثيفا حتى اتهم بالزيغ ، بل بالكفر ، حيث طعن عليه طائفة (من الحسدة) بأن فى بعض كتبه ما يخالف مذهب الأصحاب المتقدمين ، والمشايخ المتكلمين ، وأن العدول عن مذهب الأشعرى ـ ولو فى قيد شبر ـ كفر ! ، ومباينته ـ ولو فى شئ نزر ـ ضلال وخسر !

وقد واجه هذه الحملة العنيفة بتصنيف كتابه (فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة) . وكان مما قاله فيه مخاطبا صاحبه ومريده الذى وجه إليه رسالته هذه :

" فخاطب نفسك وصاحبك ، وطالبه بحد الكفر ، فإن زعم أن حد الكفر ما يخالف مذهب الأشعرى ، أو مذهب المعتزلى ، أو مذهب الحنبلى أو غيرهم ، فاعلم أنه غر بليد ، قد قيده التقليد ، فهو أعمى من العميان ، فلا تضيع بإصلاحه الزمان ! وناهيك حجة فى إفحامه مقابلة دعواه بدعوى خصومه ، إذ

---

(١) الإحياء جـ ١ / ٣٦ .

لا يجد بين نفسه وبين سائر المقلدين المخالفين له فرقا وفصلا ، ولعل صاحبه يميل من بين سائر المذاهب إلى الأشعرى ، ويزعم أن مخالفتــه فى كــل مــا ورد وصــدر كفــر من الكفر الجلى ، فاسأله : من أين ثبت له كون الحق وقف عليه ، حتى قضى بكفر الباقلانى ، إذ خالفه فى صفة البقاء لله تعالى ، وزعم أنه ليس هو وصفا لله تعالى زائدا على الذات ؟ ولم صار الباقلانى أولى بالكفــر لمخالفتــه الأشعــرى مــن الأشعــرى بمخالفتــه الباقــلانى ؟ ! ولم صار الحق وقفا على أحدهما دون الثانى ؟ أكان ذلك لأجل السبق فى الزمان ؟ فقد سبق الأشعرى غيره من المعتزلة ، فليكن الحق للسابق عليه ! أم لأجل التفاوت فى الفضل والعلم ؟ فبأى ميزان ومكيال قدر درجات الفضل ، حتى لاح له أن لاأفضل فى الوجود من متبوعه ومقلده ؟ فإن رخص للباقلانى فى مخالفته فلم حجر على غيره ؟ وما الفرق بين الباقلانى والكرابيسى والقلانسى وغيرهم ! وما مدرك التخصيص بهذه الرخصة [1]؟" .

وعلى هذا النحو من القوة والتدفق البصير ، القائم على النظر العلمى الخالص يناقش الغزالى المعظمين لأقوال السابقين ، المنكرين لكل من خالفهم فى نقير أو قطمير ، وفى هذا السياق يقولُ لصاحبه :

---

(١) فيصل التفرقة .

" ولعلك ـ إن أنصفت ـ علمت أن من جعل الحق وقفا على واحد من النظار بعينه فهو إلى الكفر والتناقض أقرب ، أما الكفر ، فلأنه نزله منزلة المعصوم من الزلل الذى لا يثبت الإيمان إلا بموافقته ، ولا يلزم الكفر إلا بمخالفته ، وأما التناقض ، فهو أن كل واحد من النظار يوجب النظر ، وأن لاترى فى نظرك إلا ما رأيت ، وكل ما رأيته حجة ، وأى فرق بين من يقول قلدنى فى مجرد مذهبى ، وبين من يقول قلدنى فى مذهبى ودليلى جميعا ، وهل هذا إلا التناقض [1]؟ "

(٣) وهو ـ ثالثاً ـ يحاول أن يضع (معايير) ثابتة ، لتقويم الفكر ، وتقويم السلوك ليرجع إليها المتجادلون ويحتكم إليها المختلفون .

وفى هذا وضع جملة من الكتب تدل عناوينها على مضمونها ، مثل (معيار العلم) و (القسطاس المستقيم) و (محك النظر) و (ميزان العمل) .

ولعل هذا كان وراء اهتمامه بعلم (المنطق) واعتباره مقدمة للعلوم كلها ، وإيجاب تعلمه على سبيل الكفاية ! لأنه يراه الآلة القانونية التى تعصم مراعاتها الذهن عن الزلل فى الفكر .

---

(١) فيصل التفرقة .

والمقصود هنا أنه كان معنيا بوضع (المعيار) أو (الميزان) الذى يمكن بواسطته تقويم الأقوال والمذاهب ، وأدلة كل منها ، وهو يزعم أنه بذلك مستطيع أن يرد الناس إلى الحق لو أصغوا إليه ، واحتكموا إلى ميزانه ، كما أشار إلى ذلك فى مناقشته للباطنية فى (المنقذ من الضلال) .

الغزالى يقاوم موجة الغلو فى التكفير :

ومن مآثر الغزالى التى تسجل فى ديوان حسناته وماأكثرها : وقوفه ضد تيار (الغلو فى التكفير) الذى كان يسود مناخ الفرق الإسلامية فى عصره ، وقبل عصره ، فكل فرقة تكفر من يخالفها فى الرأى ، وتعتقده مكذبا لله ولرسوله ، ومعنى هذا إهدار دمه وماله ، واعتقاد استحقاقه الخلود فى النار !

ولكن الغزالى عارض هذا الإسراف بقوة ، وأوضح ما يكون ذلك فى كتابيه : (الاقتصاد فى الاعتقاد) و (فيصل بين الإسلام والزندقة) .

نقرأ قوله فى (الاقتصاد)

" والذى ينبغى أن يميل المحصل إليه : الاحتراز من التكفير ما وجد إليه سبيلا ، فإن استباحة الدماء والأموال من المصلين إلى القبلة ، المصرحين بقول (لا إله إلا الله ، محمد رسول

الله) خطأ ، والخطأ فى ترك ألف كافر فى الحياة أهون من الخطأ فى سفك محجمة من دم مسلم ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله محمد رسول الله ؛ فإذا قالوها فقد عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها " [1].

إلى أن قال :

" فلم يثبت لنا أن الخطأ فى التأويل موجب للتكفير ، فلابد من دليل عليه ، وثبت أن العصمة مستفادة من قول (لاإله إلا الله) قطعا ، فلا يدفع ذلك إلا بقاطع وهذا القدر كاف فى التنبيه على أن إسراف من بالغ فى التكفير ليس عن برهان ، فإن البرهان إما أصل ، أو قياس على أصل ، والأصل هو التكذيب الصريح ، ومن ليس بمكذب فليس فى معنى الكذب أصلا ، فيبقى تحت عموم العصمة بكلمة الشهادة " [2].

ويعود لهذا الموضوع فى (فيصل التفرقة) فيوصد الباب فى وجه الغلاة فى (التكفير) بمجرد التأويل .

كما شدد النكير على

المتعصبين من المتكلمين الذين فرضوا على عوام المسلمين

---

(١) ص ٢٢١ ط . بيروت .

(٢) الاقتصاد ص ٢٢٣ ، ٢٢٤ ط . بيروت .

أن يعرفوا العقائد الدينية على طريقة علماء (الكلام) ومن لم يعرفها بأدلتهم فهو فى نظرهم كافر .

يقول الغزالى منكرا عليهم :

" من أشد الناس غلواً وإسرافا : طائفة من المتكلمين كفروا عوام المسلمين وزعموا : أن من لايعرف (الكلام) معرفتنا ولم يعرف العقائد الشرعية بأدلتنا التي حررناها ، فهو كافر !

فهؤلاء ضيقوا رحمة الله الواسعة على عباده - أولا - وجعلوا الجنة وقفا على شرذمة يسيرة من المتكلمين .

ثم جهلوا ما تواتر من السنة - ثانيا - إذ ظهر لهم فى عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وعصر الصحابة - رضى الله عنهم - حكمهم بإسلام طوائف من أجلاف العرب ، كانوا مشغولين بعبادة الوثن ، ولم يشتغلوا بعلم الدليل ، ولو اشتغلوا به لم يفهموه[1] " ..

ثم بين أن مدرك الإيمان ليس هو أدلة المتكلمين وترتيبها ، بل هو نور يقذفه الله فى القلب تارة ببينة من الباطن لايمكنه التعبير عنها ، وتارة بمشاهدة حال رجل متدين يسرى نوره إليه عند صحبته ومشاهدته ، وتارة بقرينة حال ، ونحو ذلك.

---

(١) فيصل التفرقة .

بل ربما اتهم هنا بالمبالغة فى الدفاع عن الطوائف المخالفة لأهل السنة ، استمع إليه يقول :

" لعلك تشتهى أن تعرف حد الكفر .... وإنى أعطيك علامة صحيحة تطردها وتعكسها لتتخذها نظرك ، وترعوى بسببها من تكفير الفرق ، وتطويل اللسان فى أهل الإسلام . وإن اختلفت طرقهم ، ماداموا متمسكين بقول لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، صادقين بها . غير مناقضين لها ، فأقول :

الكفر هو تكذيب الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ فى شئ مما جاء به ، والإيمان تصديقه فى جميع ما جاء به .

واعلم أن هذا الذى ذكرناه ، مع ظهوره ، تحته غور ، بل تحته كل الغور ، لأن كل فرقة تكفر مخالفها ، وتنسبه إلى تكذيب الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ فالحنبلى يكذب الأشعرى ، زاعما أنه كذب الرسول فى إثبات " الفوق " لله تعالى فى الاستواء على العرش ، والأشعرى يكفره ، زاعما أنه مشبه ، وكذب الرسول فى أنه ليس كمثله شئ .

والأشعرى يكذب المعتزلى ، زاعما أنه كذب الرسول فى جواز رؤية الله تعالى وفى إثبات العلم والقدرة والصفات له .

والمعتزلى يكفر الأشعرى ، زاعما أن إثبات الصفات تكثير للقدماء ، وتكذيب للرسول فى التوحيد .

ولاينجيك من هذه الورطة إلا أن تعرف حد " التكذيب " و " التصديق " وحقيقتهما ، فينكشف لك غلو هذه الفرق وإسرافها فى تكفير بعضها بعضا .

قالوا : إن الإيمان إنما يتطرق إلى الخبر ، بل إلى المخبر ، وحقيقته الاعتراف بوجود ما أخبر الرسول - صلى الله عليه وسلم - عن وجوده ، إلا أن للوجود خمس مراتب ، ولأجل الغفلة عنها ، نسبت كل فرقة مخالفها إلى التكذيب .

فإن الوجود : ذاتى ، وحسى ، وخيالى ، وعقلى ، وشبهى .

فمن اعترف بوجود ما أخبر الرسول - صلى الله عليه وسلم - عن وجوده بوجه من هذه الوجوه الخمسة ، فليس بمكذب على الإطلاق .

أما الوجود الذاتى : فهو الوجود الحقيقى الثابت خارج الحس والعقل .

وأما الوجود الحسى : فهو ما يتمثل فى القوة الباصرة من

العين مما لا وجود له خارج العين ، وذلك كما يشاهد النائم .

وأما الوجود الخيالى : فهو صورة هذه المحسوسات إذا غابت عن حسك ..

وأما الوجود العقلى : فهو أن يكون للشئ روح ، وحقيقة ، ومعنى ، فيتلقى العقل حقيقة معناه ، دون أن يثبت صورته فى خيال ، أو حس ، أو خارجٍ ، كاليد مثلا ، فإن لها صورة محسوسة ومتخيلة ، ولها معنى هو حقيقتها ، وهو القدرة على البطش .

والقدرة على البطش هى اليد العقلية .

وأما الوجود الشبهى : فهو أن لا يكون نفس الشئ موجودا ، لا بصورته ولا بحقيقته ، لا فى الخارج ، ولا فى الحس ، ولا فى الخيال ، ولا فى العقل ، ولكن يكون الوجود شيئا آخر يشبهه ، فى خاصة من خواصه ، وصفة من صفاته "[1] ...الخ ..

والغزالى يبدو هنا ـ بالنظر إلى المخالفين ـ محاميا ، أكثر منه قاضيا حتى اعتبر الاعتراف بوجود ما أخبر الرسول به

(١) فيصل التفرقة .

ـ وجودا خياليا ! أو عقليا أو شبهيا ـ كافيا فى نفى التكذيب والكفر عمن قال به . وهذه غاية فى التسامح ربما جره إلى أن يتهم هنا بالتفريط .

يبدو أن مما يذكر للغزالى هنا : أنه ـ مع هذا التسامح الرحب والتماس المخارج المعقولة للمخالفين ، لإبقائهم فى دائرة الإسلام ـ لم يفرط فى حماية حقائق الدين من المقولات التى تمس جوهره ، وتجافى المعلوم بالتواتر من عقيدته وشريعته ، من أقاويل الفلاسفة أو من شطحات الصوفية ، حيث لم يجد وجها لتأويل كلامهم بأحد وجوه التأويل التى ذكرها حتى قال عن بعض المتصوفة الذين زعموا أنهم وصلوا بالرياضة الروحية إلى حال تسقط عنهم فرائض الدين وشعائر عبادته : إن قتل الواحد منهم أفضل من قتل مائة كافر أصلى ، لأن الكافر مفضوح بكفره وهذا يهدم الشرع من الشرع[1]! .

رسالة الغزالى فى تجديد الدين وإحيائه :

كان الغزالى يشعر فى أعماقه أن الأقدار العليا ناطت به مهمة تجديد الدين وإحيائه على رأس المائة الخامسة .

فلم يعد يكفى عمله (الهدمى) فى إنزال الفلسفة من عرش غرورها ، وإيقاف الفرق المنشقة عند حدها ، بل لابد من

(١) المصدر السابق .

عمل (بنائى) آخر ، لحساب الإسلام ، بعد إزالة أنقاض الجاهلية .

كان هذا العمل البنائى يتمثل فى أمرين :

١- إحياء العلوم الدينية الحقيقية ، خلفا للعلوم الفلسفية والمبتدعة .
٢- إحياء الشعور الدينى ، الذى يدفع إلى العمل بالدين ، عملا خالصا غير مغشوش ولا مدخول .

ومن قرأ مقدمة (الإحياء) يلمس هذا الوعى أو الإحساس الداخلى عند الغزالى .

فقد رأى علم الدين الحقيقى مندرسا ، ومنار الهدى فى أقطار الأرض منطمسا ، ولم يبق إلا علم الفتوى فى الأحكام الظاهرة ، أو الجدل للمباهاة والغلبة والإفحام ، أو السجع المزخرف يتوسل به الواعظ إلى استدراج العوام .

" فأما علم طريق الآخرة ، وما درج عليه السلف الصالح مما سماه الله فى كتابه فقها وحكمة وعلما وضياء ونورا وهداية ، ورشدا ، فقد أصبح من بين الخلق مطويا وصار نسيا منسيا .

ولما كان هذا ثلما فى الدين ملمّا ، وخطبا مدلهما ، رأيت الاشتغال بتحرير هذا الكتاب مُهمًّا ، إحياء لعلوم الدين ، وكشفا عن مناهج الأئمة المتقدمين .... الخ »[1] .

كان أكبرُ هَمِّ الغزالى لإحياء علم الدين والعمل به : التركيز على (علم طريق الآخرة) وما يحتاج إليه سالكه من ثقافة وخلق وعمل .

والعجيب أنه ـ وهو الفقيه الكبير ـ سلك الفقه فى منظومة علوم الدنيا ، وإن كان له ارتباط بعلم الدين[2].

كما أنه شرع يخفف من غلواء علم الكلام وأهميته ، ولايراه علما أساسيا من علوم الدين ، بل يراه علم حراسة الدين من تشويش المبتدعة ، فالحاجة إليه بالنسبة للدين كالحاجة إلى الحراس والخفراء فى طريق الحج بالنسبة للحج ، لوجود قطاع الطريق ، فلو عدموا ما كان لهؤلاء الحراس عمل ولا مكان .

فليس هو عملاً مطلوبا لذاته لتثقيف المسلم ، بل هو مطلوب للدفاع عن العقيدة فى مواجهة شبهات المدارس العقلية ، والبدع المستحدثة .

---

(١) مقدمة (الإحياء) .

(٢) الإحياء : كتاب العلم جـ ١ .

وقد أنكر على علماء عصره ومن قبلهم تكليفهم عوام المسلمين معرفة العقائد بأدلة المتكلمين ، وهو تكليف بما يتعذر ، ثم هو تكليف بما لا ينفع ، ويكفى هؤلاء أدلة القرآن بما فيها من يسر ووضوح ، ومخاطبة للعقل وللقلب معا .

يقول فى (الإحياء) :

« اعلم أن حاصل ما يشتمل عليه (علم الكلام) من الأدلة التى ينتفع بها ، فالقرآن والأخبار مشتملة عليه ، وما خرج عنهما ، فهو : إما مجادلة مذمومة وهى من البدع ... وإما مشاغبة بالتعلق بمناقضات الفرق لها ، وتطويل بنقل المقالات التى أكثرها ترّهات وهذيانات ، تزدريها الطباع ، وتمجها الأسماع ، وبعضها خوض فيما لا يتعلق بالدين ، ولم يكن شىء منه مألوفا فى العصر الأول ، وكان الخوض فيه بالكلية من البدع . ولكن تغير الآن حكمه ، إذ حدثت البدعة الصارفة عن مقتضى القرآن والسنة ، ونبغت لها جماعة لفقوا لها شبها ، ورتبوا فيها كلاما مؤلفا . فصار المحذور ـ بحكم الضرورة ـ مأذونا فيه ، بل صار من فروض الكفايات ، وهو القدر الذى يقابل به المبتدع ، إذا قصد الدعوة إلى البدعة وذلك إلى حد محدود ..... »[1] .

---

(١) الإحياء جـ ١ ص ٢٢ .

وذكر فى كتابه الذى ألفه فى أواخر حياته (إلجام العوام عن علم الكلام) ، والذى مال فيه إلى مذهب السلف : « أن أدلة القرآن مثل الغذاء ينتفع به كل إنسان . وأدلة المتكلمين مثل الدواء . ينتفع به آحاد الناس ، ويستضر به الأكثرون . بل أدلة القرآن كالماء الذى ينتفع به الصبى الرضيع ، والرجل القوى ، وسائر الأدلة كالأطعمة التى ينتفع بها الأقوياء مرة ، ويمرضون بها أخرى ولا ينتفع بها الصبيان أصلا »[1] .

بل قال كلمته الجريئة - التى أنكرها عليه المازرى وغيره : « من مات ولم يعلم أن البارى قديم ، مات مسلما ... »[2]

يريد أن الصحابة وتابعيهم بإحسان لم يكونوا يلقنون مثل هذه الاعتقادات لأبنائهم وتلاميذهم ، ولم يكونوا يشترطونها لصحة الإسلام أو الإيمان . فمن مات وهو خالى الذهن عنها مات على الإسلام والفطرة .

الغزالى ينقد المجتمع ويكشف التدين المغشوش :

لقد أخذ الغزالى على عاتقه أن يبين معالم التدين الصحيح ، الذى يأخذ بيد الإنسان إلى مرضاة الله تعالى ،

(١) إلجام العوام .

(٢) انظر : طبقات الشافعية الكبرى لابن السبكى جـ ٦ / ٢٤٢ .

وسعادة الآخرة ، التى هى غاية الغايات . وأن يوضح طريق هذا التدين ومراحله وعقباته وقواطعه . كما أن عليه أن يفضح التدين الزائف المدخول ، وإن طلى بطلاء التقوى ، وأن يكشف عن أصناف هؤلاء الذين يحسبون أنهم على شىء وهم فى الحقيقة كاذبون .

لقد غاص الغزالى فى أغوار الأنفس ، كما غاص فى أعماق المجتمع ، ورصد كثيرا من الظواهر الاجتماعية والأخلاقية ، التى نشأت عن سوء فهم حقيقة الدين وعن خداع النفس وتلبيس إبليس عليها أنها عاملة به ، سائرة على دربه ، أو عن غلبة الشهوات الظاهرة والخفية على النفس والسلوك ، أو تأثير أصدقاء السوء ، وعبيد الدنيا ، أو غير ذلك .

وكان الغزالى فى نقده للأفراد والفئات الاجتماعية المختلفة نافذ البصيرة وعميق النظرة ، لم يقف عند السطح ، بل اتجه إلى الأعماق ، فعرف كيف يشخص الداء ، ويصف الدواء .

نقد العلماء :

وممن ركز الغزالي عليهم نقده في كتبه ، ولاسيما (الإحياء) في مواضع جمة منه : العلماء ، ويعني بهم العلماء المنتسبين إلى الدين ، وهم فى الحقيقة (علماء الدنيا) !

وهو يحملهم مسئولية كبيرة فى فساد الملوك والحكام ، وفساد العوام ، ويرى أن الداء العضال فقد الطبيب ، والأطباء هم العلماء ، وهم أنفسهم قد مرضوا مرضا شديدا .

ونراه هنا يتمثل بقول الشاعر :

وراعى الشاة يحمى الذئب عنها
فكيف إذا الرعاة لها ذئاب ؟!

وقول الآخر :

يامعشر القراء يا ملح البلد   ما يصلح الملح إذا الملح فسد ؟!

وقد ذكر فى (كتاب العلم) بابا بين فيه العلامات الفارقة بين علماء الآخرة ، وعلماء الدنيا ، الذين سماهم (علماء السوء) ، وهى اثنتا عشرة علامة [1] .

لقد نقد العلماء من أهل الفقه والكلام لانشغالهم بعلم الظاهر عن علم الباطن وبعمل الجوارح عن أعمال القلوب ، حتى لو سئل عن معنى شىء منها لتوقف فيه ، ولوسئل عن الظهار واللعان ونحوها ، لسرد عليك مجلدات من التفريعات

(١) انظر الإحياء جـ ٣ ص ٥٨ ومابعدها .

والواقع أن حملة نقد العلماء تحت عنوان علماء السوء بدأت فى القرن الثالث الهجرى على يد المحاسبى والتسترى ٢٨٣ هـ ، وللأخير رسائل مستقلة لهذا الغرض تعم طوائف من العلماء ، بل من الزهاد والعباد وبعض الصوفية والفقهاء . فالغزالى إنما عمق هذه الحملة ووسعها .

الدقيقة ، التى تنقضى الدهور ، ولا يحتاج إلى شىء منها[1] !

وعاب الغزالى على علماء عصره إهمالهم لبعض فروض الكفايات التى لا يستغنى المجتمع المسلم عنها . مثل علم الطب .

« فكم من بلدة ليس فيها طبيب إلا من أهل الذمة ، ولا يجوز قبول شهاداتهم فيما يتعلق بالأطباء من أحكام الفقه ، ثم لا نرى أحدا يشتغل به ، ويتهاترون على الفقه ، لا سيما الخلافيات والجدليات ، والبلد مشحون من الفقهاء ... فليت شعرى كيف يرخص فقهاء الدين فى الاشتغال بفرض كفاية قد قام به جماعة ، وإهمال مالا قائم به ؟! »[2] .

ومن الدقائق التى نبه الغزالى عليها هنا : تغير معانى الكلمات القرآنية والنبوية عما كانت عليه فى عهد الصحابة ، ومن تبعهم بإحسان ، إلى معان اصطلاحية أخرى . مثل كلمات الفقه والعلم والتوحيد والتذكير والحكمة . فقد غدت كلمة (الفقه) عند الخلف تعنى : معرفة الفروع الغريبة فى الفتاوى والوقوف على دقائق عللها ، واستكثار الكلام فيها ، وحفظ المقالات المتعلقة بها . فمن كان أشد تعمقا فيها ، وأكثر اشتغالا بها ، يقال هو الأفقه[3] ! .

---

(١) الإحياء جـ ١ ص ٢١ .

(٢) نفس المصدر .

(٣) الإحياء جـ ١ ص ٣٢

وكان اسم الفقه فى العصر الأول يطلق على علم طريق الآخرة ، ومعرفة دقائق آفات النفوس ، ومفسدات الأعمال ، وقوة الإحاطة بحقارة الدنيا ... واستيلاء الخوف على القلب .

ويستدل الغزالى لذلك بالقرآن والأحاديث وآثار السلف[1] . وكلامه هنا فى غاية النفاسة والأصالة .

ثم يحذر من الاشتغال بعلم (الخلافيات) التى أحدثت فى الأعصار المتأخرة وأبدع فيها من التحريرات والتصنيفات والمجادلات مالم يعهد مثلها فى السلف قال : فإياك وأن تحوم حولها ، واجتنبها اجتناب السم القاتل ، فإنها الداء العضال الذى رد الفقهاء كلهم إلى طلب المنافسة والمباهاة .

ثم يقول : فاقبل هذه النصيحة ممن ضيع العمر فيه زمانا ، وزاد فيه على الأولين تصنيفا وتحقيقا وجدلا وبيانا ، ثم ألهمه الله رشده ، وأطلعه على عيبه ، فهجره واشتغل بنفسه[2] ! .

وللغزالى توجيهات رائعة للوعاظ والقصاص والمذكرين ، يجب الانتفاع بها ، فهو يحذر من القصص والحكايات المنحولة والمزورة ، ويراها بدعة فى دين الله ، وعلى الواعظ أن يرجع إلى القصص المحمودة ، وما يشتمل عليه القرآن ، ويصح فى

(١) الإحياء جـ ١ ص ٣٢ وما بعدها .
(٢) نفسه ص ٤١ .

الكتب الصحيحة من الأخبار .

قال : ومن الناس من يستجيز وضع الحكايات المرغبة فى الطاعات ، ويزعم أن قصده فيها دعوة الخلق إلى الحق ، فهذه من نزغات الشيطان ، فإن فى الصدق مندوحة عن الكذب ، وفيما ذكر الله ورسوله - صلى الله عليه وسلم - غنية عن الاختراع فى الوعظ ، كيف وقد كره تكلف السجع ، وعد ذلك من التصنع ؟

قال سعد بن أبى وقاص - رضى الله عنه - لابنه عمر ، وقد سمعه يسجع : هذا الذى يبغضك إلى ! لا قضيت حاجتك أبدا حتى تتوب ! وقد كان جاءه فى حاجة[1] .

ومن قرأ (الإحياء) وحده للغزالى ، وجد فيه من النظرات العميقة والتحليلات الدقيقة ، فى نقد المجتمع وبيان نقاط الضعف فيه ، وعوامل الفساد فى شتى نواحيه ، ما يشهد لهذا الإمام بأنه - برغم نزعته الصوفية الزهدية - ناقد اجتماعى من الطراز الأول ، كما أنه عالم نفسى رفيع المقام .

والإحياء ملىء بهذه النظرات والتحليلات الفاحصة الناقدة

---

(١) الإحياء جـ ١ ص ٢٤ - ٣٥ وانظر جـ ٣ ص ٣٩٥ - ٣٩٧ فى ذم الغرور .

الموجهة ، يجدها قارئه فى (أرباعه) الأربعة ، وفى كتبه الأربعين ، ولكنه يجدها أوضح ما تكون فى كتابه (ذم الغرور) وهو العاشر من ربع (المهلكات) .

وفيه ذكر أصنافا من الذين أوبقهم الغرور ، وهم لا يشعرون .

فذكر من هؤلاء أرباب العلم ، وأرباب العبادة والعمل ، وأرباب التصوف وأرباب الأموال ، وآخرين من العوام ، وذكر فرق المغترين من كل صنف ، وكيف خدعتهم أنفسهم ، أو زينت لهم شياطينهم سوء أعمالهم ، فرأوها حسنة ، وقد أبدع فى الوصف والتصوير هنا أيما إبداع . كما أشار إلى العلاج الواجب الاتباع ، ولعل هذا الكتاب هو الذى أوحى إلى ابن الجوزى بتأليف كتابه (تلبيس إبليس) .

نماذج رائعة من نقد الغزالي للتدين المغلوط :

واكتفى هنا بذكر نموذجين من نماذج نقده القوى العميق البصير ، لنرى منه مقدار فقهه فى دين الله ، وفهمه لدنيا الناس ، وحرصه على إصلاحهم فى ظواهرهم وبواطنهم .

نموذج من الإخلال بالترتيب الشرعي للأعمال :

النموذج الأول من فرق المغترين من المتدينين من أهل

العبادة والعمل يقول فيه :

« فمنهم فرقة أهملوا الفرائض ، واشتغلوا بالفضائل والنوافل ، وربما تعمقوا فى الفضائل حتى خرجوا إلى العدوان والسرف ، كالذى تغلب عليه الوسوسة فى الوضوء فيبالغ فيه ، ولا يرضى الماء المحكوم بطهارته فى فتوى التشريع ، ويقدر الاحتمالات البعيدة قريبة فى النجاسة ، وإذا آل الأمر إلى أكل الحلال قدر الاحتمالات القريبة بعيدة ! وربما أكل الحرام المحض ، ولو انقلب هذا الاحتياط من الماء إلى الطعام لكان أشبه بسيرة الصحابة ، فقد توضأ عمر ـ رضى الله عنه ـ بماء فى جرة نصرانية ، مع ظهور احتمال النجاسة ، وكان ـ مع هذا ـ يدع أبوابا من الحلال ، مخافة من الوقوع فى الحرام .

وفرقة أخرى حرصت على النوافل ولم يعظم اعتدادها بالفرائض ، نرى أحدهم يفرح بصلاة الضحى ، وبصلاة الليل ، وأمثال هذه النوافل ، ولا يجد للفريضة لذة ، ولا يشتد حرصه على المبادرة بها فى أول الوقت ، وينسى قوله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه : « ما تقرب المتقربون إلىّ بمثل أداء ما افترضت عليهم »[1] ، وترك الترتيب بين الخيرات من جملة الشرور .

---

(١) ما تقرب المتقربون إلى بمثل أداء ما افترضت عليهم » أخرجه البخارى من حديث أبى هريرة بلفظ » « ما تقرب إلى عبدى » .

بل قد يتعين فى الإنسان فرضان : أحدهما يفوت والآخر لايفوت ، أو فضلان أحدهما يضيق وقته والآخر يتسع وقته ، فإن لم يحفظ الترتيب فيه كان مغرورا .

ونظائر ذلك أكثر من أن تحصى ، فإن المعصية ظاهرة ، والطاعة ظاهرة ، وإنما الغامض تقديم بعض الطاعات على بعض ، كتقديم الفرائض كلها على النوافل وتقديم فروض الأعيان على فروض الكفاية ، وتقديم فرض كفاية لا قائم به على ما قام به غيره ، وتقديم الأهم من فروض الأعيان على مادونه ، وتقديم ما يفوت على ما لا يفوت ، وهذا كما يجب تقديم حاجة الوالدة على حاجة الوالد ، إذ سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقيل له : من أبر يا رسول الله ؟ قال : « أمك » قال : ثم من ؟ قال « أمك » قال ثم من ؟ قال : « أمك » ، قال : ثم من ؟ قال : « أباك » ، قال ثم من ؟ قال : « أدناك فأدناك »[1] فينبغى أن يبدأ فى الصلة بالأقرب ، فإن استويا فبالأحوج ، فإن استويا فبالأتقى والأورع .

وكذلك من لا يفى ماله بنفقة الوالدين والحج ، فربما يحج ، وهو مغرور ، بل ينبغى أن يقدم حقهما على الحج ، وهذا من

---

(١) حديث : من أبر ؟ قال « أمك ... الحديث » أخرجه الترمذى والحاكم وصححه من حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جده . (وهو فى الصحيحين بلفظ آخر من حديث أبى هريرة) .

تقديم فرض أهم على فرض هو دونه .

وكذلك إذا كان على العبد ميعاد ، ودخل وقت الجمعة فالجمعة تفوت والاشتغال بالوفاء بالوعد (حينئذ) معصية ، وإن كان هو طاعة فى نفسه .

وكذلك قد تصيب ثوبه النجاسة ، فيغلظ القول على أبويه وأهله بسبب ذلك ، فالنجاسة محذورة ، وإيذاؤهما محذور ، والحذر من الإيذاء أهم من الحذر من النجاسة .

وأمثلة تقابل المحذورات والطاعات لا تنحصر ، ومن ترك الترتيب فى جميع ذلك فهو مغرور »[1] .

وهذا الذى ذكره الغزالى الفقيه فى غاية الأهمية ، وما أحوج شباب الصحوة الإسلامية إلى فقهه ووعيه ، وطالما دعوت منذ مدة هؤلاء الشباب والجماعات الدينية إلى ما سميته (فقه مراتب الأعمال) وإعطاء كل عمل (سعره) الشرعى ، ومكانه فى سلم المأمورات والمنهيات ، ولم أكن قرأت ما كتبه الغزالى هنا بهذا العمق والوضوح وعبر عنه بهذه الكلمة الناصعة : (ترك الترتيب بين الخيرات من جملة الشرور) . وسيأتى فى كلامه مزيد أمثلة .

(١) الإحياء جـ ٣ ص ٤٠ ـ ٤٠٤ .

نموذج من إنفاق الأموال في غير ما هو أولى بها :

والنموذج الآخر يتمثل فى بعض أرباب الأموال ، والمغترون منهم فرق : (ففرقة منهم) يحرصون على بناء المساجد والمدارس والرباطات والقناطر ، وما يظهر للناس كافة ويكتبون أساميهم بالآجُرّ عليها ، ليتخلد ذكرهم ، ويبقى بعد الموت أثرهم ، وهم يظنون أنهم قد استحقوا المغفرة بذلك ، وقد اغتروا فيه من وجهين :

أحدهما : أنهم يبنونها من أموال اكتسبوها من الظلم والنهب والرشا والجهات المحظورة فهم قد تعرضوا لسخط الله فى كسبها ، وتعرضوا لسخطه فى إنفاقها . وكان الواجب عليهم الامتناع عن كسبها ، فإذ قد عصوا الله بكسبها فالواجب عليهم التوبة والرجوع إلى الله ، وردها إلى ملاكها ، إما بأعيانها وإما برد بدلها عند العجز ، فإن عجزوا عن الملاك ، كان الواجب ردها إلى الورثة ، فإن لم يبق للمظلوم وارث فالواجب صرفها إلى أهم المصالح ، وربما يكون الأهم التفرقة على المساكين ، وهم لا يفعلون ذلك ، خيفة من أن لايظهر ذلك للناس ، فيبنون الأبنية بالآجر ، وغرضهم من بنائها الرياء ، وجلب الثناء وحرصهم على بقائها ، لبقاء أسمائهم المكتوبة فيها لإبقاء الخير .

والوجه الثانى : أنهم يظنون بأنفسهم الإخلاص ، وقصد

الخير فى الإنفاق على الأبنية . ولو كلف واحد منهم أن ينفق دينارا ، ولا يكتب اسمه على الموضع الذى أنفق عليه ذلك ، لم تسمح به نفسه ، والله مطلع عليه كتب اسمه أو لم يكتب ، ولولا أنه يريد به وجه الناس لا وجه الله لما افتقر إلى ذلك .

وفرقة أخرى من أرباب الأموال اشتغلوا بها يحفظون الأموال ، ويمسكونها بحكم البخل ، ثم يشتغلون بالعبادات البدنية التى لا يحتاج فيها إلى نفقة كصيام النهار ، وقيام الليل ، وختم القرآن ، وهم مغرورون ، لأن البخل المهلك قد استولى على بواطنهم ، فهو يحتاج إلى قمعه بإخراج المال ، فقد اشتغل بطلب فضائل هو مستغن عنها ، ومثاله مثال من دخل فى ثوبه حية ، وقد أشرف على الهلاك ، وهو مشغول بطبخ السكنجبين ليسكن به الصفراء ، ومن قتلته الحية متى يحتاج إلى السكنجبين ؟ ولذلك قيل لبشر : إن فلانا الغنى كثير الصوم والصلاة ! فقال : المسكين ترك حاله ودخل فى حال غيره ! وإنما حال هذا إطعام الطعام للجياع ، والإنفاق على المساكين ، فهذا أفضل له من تجويعه نفسه ، ومن صلاته لنفسه ، من جمعه للدنيا ومنعه للفقراء .

ومما عاب الغزالى كذلك على المتدينين من أرباب الأموال : أنهم ربما يحرصون على إنفاق المال فى الحج ، فيحجون مرة بعد أخرى ، وربما تركوا جيرانهم جياعا .

فلذلك قال ابن مسعود : فى آخر الزمان يكثر الحاج بلا سبب ، يهون عليهم السفر ، ويبسط لهم فى الرزق ، ويرجعون محرومين مسلوبين . يهوى بأحدهم بعيره بين الرمال والقفار ، وجاره مأسور إلى جنبه لا يواسيه[1] .

وكأن ابن مسعود رضى الله عنه ينظر إلى زماننا هذا من وراء الغيب ، ويصف ما فيه .

وهذه النماذج البشرية التى وجه الغزالى إليها نقده تدلنا على مدى اهتمامه بإصلاح المجتمع ، بدءاً بتصحيح المفاهيم المغلوطة والتصورات الخاطئة ، وبيان خداع النفس فيها ، وإلقاء الأضواء على حقائقها وإظهار خباياها .

الغزالى ينقد سلاطين عصره ويحذر منهم :

ولم يكن نقد الغزالى ولا نصحه موجها للجمهور فحسب ، ولا للعلماء والمتصوفة ونحوهم من الطبقات فحسب ، بل شمل نصحه وتوجيهه السلاطين والوزراء ، الذين بأيديهم أمر المسلمين ، وطالما ذكر أن صلاح الأمة لا يتم إلا بصلاح هاتين الفئتين : أهل العلم والفكر ، وأهل السياسة والسلطة ، فهما الصنفان اللذان إذا صلحا صلح الناس ، وإذا فسدا فسد الناس ، وطالما حكى قول بعض السلف : لو كان لى دعوة

(١) الإحياء جـ ٣ ص ٤٠٦ .

مستجابة لدعوتها للسلطان ، فإن الله يصلح بصلاحه خلقا كثيرا.

والناس يمنعهم من إسداء النصح وقول الحق المر أمران : الخوف والطمع ، وهو فى حياته الجديدة ليس عنده ما يخاف عليه ، وليس عندهم ما يطمع فيه ، وقد خبت فى قلبه جمرة الحرص ، وحب المال والجاه ، بعد أن جعل الدنيا طريقا لسفره لا محلا لإقامته ، واتخذ منها قنطرة يعبرها ولا يعمرها ! .

زاره وزير الخليفة أنو شروان فى بيته تكريما له ، وإقرارا بمنزلته وفضله وما كان هذا ليحدث من هؤلاء الكبراء إلا لمثل الغزالى ، ولكن أبا حامد قال له : زمانك محسوب عليك ، وأنت كالمستأجر (أى للأمة) فتوفرك على ذلك أولى من زيارتى[1] ! .

أدرك الغزالى ، ببصيرته وثقافته الواسعة أن أول ما نقض من عُرا الإسلام ما يتعلق بالحكم والسياسة ، وأن أبرز ما انحرف فيه الحكم عن صراط الإسلام كان فى سياسة المال .

ولهذا شدد النكير على السياسة المالية للسلاطين ، وشدد على العلماء فى الدخول عليهم أو مخالطتهم ، أو قبول الهدايا منهم ، لأنها رشوة على الدين ، ولأن أموالهم جلها سحت حرام .

---

(١) المنتظم لابن الجوزى جـ ٩ / ١٧٠ .

وقد رد فى (الإحياء) على علماء زمانه ممن استدل بأخذ بعض السلف من عطايا الخلفاء والولاة فى زمنهم ، وفرق بين الحالين بأمرين :

أحدهما كما يقول بصريح العبارة : أن أموال السلاطين فى عصرنا حرام كلها أو أكثرها ، وكيف لا والحلال هو الصدقات والفىء ، والغنيمة ، ولا وجود لها ! وليس يدخل منها شىء فى يد السلطان ، ولم يبق إلا الجزية ، وأنها تؤخذ بأنواع من الظلم لا يحل أخذها به ، فإنهم يجاوزون حدود الشرع فى المأخوذ والمأخوذ منه ، والوفاء له بالشرط ، ثم إذا نسب ذلك إلى ما ينصب إليهم من الخراج المضروب على المسلمين ، ومن المصادرات والرشا وصنوف الظلم لم يبلغ عشر معشار عشيره .

الثانى : إن الظلمة فى العصر الأول ـ لقرب عهدهم بزمان الخلفاء الراشدين ـ كانوا مستشعرين من ظلمهم ، ومتشوقين إلى استمالة قلوب الصحابة والتابعين وحريصين على قبولهم عطاياهم وجوائزهم ، وكانوا يبعثـون إليهـم من غير سؤال وإذلال ، بل كانوا يتقلدون المنة بقبولهم ويفرحون به ، وكانوا يأخذون منهم ويفرقون ، ولا يطيعون السلاطين فى أغراضهم ، ولا يغشون مجالسهم ، ولا يكثرون جمعهـم ، ولا يحبون بَقَاءَهُم : بل يدعون عليهم ويطلقون اللسان فيهم ، وينكرون المنكرات منهم عليهم : فما كان يحذر أن يصيبوا من دينهم

بقدر ما أصابوا من دنياهم ، ولم يكن بأخذهم بأس .

فأما الآن ، فلا تسمح نفوس السلاطين بعطية إلا لمن طمعوا فى استخدامهم والتكثير بهم ، والاستعانة بهم على أغراضهم ، والتجمل بغشيان مجالسهم ، وتكليفهم المواظبة على الدعاء والثناء ، والتزكية والإطراء ، فى حضورهم ومغيبهم فلو لم يذل الآخذ نفسه بالسؤال أولا ، وبالتردد فى الخدمة ثانيا ، وبالثناء والدعاء ثالثا وبالمساعدة له على أغراضه عند الاستعانة رابعا ، وبتكثير جمعه فى مجلسه وموكبه خامسا ، وبإظهار الحب والموالاة والمناصرة له على أعدائه سادسا ، وبالستر على ظلمه ومقابحه ومساوىء أعماله سابعا ، لم ينعم عليه بدرهم واحد ، ولو كان فى فضل الشافعى رحمه الله مثلا : فإذا لا يجوز أن يؤخذ منهم فى هذا الزمان ما يعلم أنه حلال لإفضائه إلى هذه المعانى ، فكيف ما يعلم أنه حرام أو يشك فيه ؟ ! فمن استجرأ على أموالهم ، وشبه نفسه بالصحابة والتابعين ، فقد قاس الملائكة بالحدادين [1] . !

ويعلق الأستاذ الندوى على هذه الكلمة النابضة بالحيوية والقوة فيقول : وقيمة هذه الكلمة الجريئة لا تعرف إلا فى جو الحكومات الشخصية (الفردية) الرهيب ، حيث كانت كلمة واحدة تصدر من عالم أو مؤلف فى نقد ملك أو حاكم تطيح بحياته [2]!.

---

(١) الإحياء جـ ٢ ص ١٣٩ .

(٢) رجال الفكر والدعوة ص ٢٣٧ .

ولقد عقد الغزالى بابا خاصا فيما يحل من مخالطة السلاطين الظلمة وما يحرم ، وحكم غشيان مجلسهم والدخول عليهم والإكرام لهم ، قال فيه :

" اعلم أن لك من الأمراء والعمال الظلمة ثلاثة أحوال : (الحالة الأولى) وهى شرها أن تدخل عليهم ،(والثانية) وهى دونها أن يدخلوا عليك ، (والثالثة) وهى الأسلم أن تعتزل عنهم فلا تراهم ولا يروك .

أما الحالة الأولى : وهى الدخول عليهم فهو مذموم جدا فى الشرع ، وفيه تغليظات وتشديدات تواردت بها الأخبار والآثار " .

وبعد أن ذكر جملة منها قال :

" فهذه الأخبار والآثار تدل على ما فى مخالطة السلاطين من الفتن وأنواع الفساد ، ولكن نفصل ذلك تفصيلا فقهيا نميز فيه المحظور عن المكروه والمباح ، فنقول : الداخل على السلطان متعرض لأن يعصى الله تعالى إما بفعله أو بسكوته ، وإما بقوله ، وإما باعتقاده فلا ينفك عن أحد هذه الأمور .

أما الفعل : فالدخول عليهم فى غالب الأحوال يكون إلى دور مغصوبة وتخطيها والدخول فيها بغير إذن الملاك حرام .

فأما السكوت : فهو أنه سيرى فى مجلسهم من الفرش الحرير وأوانى الفضة والحرير الملبوس عليهم وعلى غلمانهم ما هو حرام ، وكل من رأى سيئة وسكت عليها فهو شريك فى تلك السيئة . بل يسمع من كلامهم ما هو فحش وكذب وشتم وإيذاء والسكوت على جميع ذلك حرام . بل يراهم لابسين الثياب الحرام ، وآكلين الطعام الحرام ، وجميع ما فى أيديهم حرام ، والسكوت على ذلك غير جائز ، فيجب عليه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بلسانه إن لم يقدر بفعله .

وأما القول : فهو أن يدعو للظالم ، ويثنى عليه ، أويصدقه فيما يقول من باطل ، بصريح قوله ، أو بتحريك رأسه ، أو باستبشار فى وجهه ، أو يظهر له الحب والموالاة ، والاشتياق إلى لقائه ، والحرص على طول عمره وبقائه ، فإنه فى الغالب لا يقتصر على السلام ، بل يتكلم ولا يعدو كلامه هذه الأقسام .

أما الدعاء له : فلا يحل إلا أن يقول : أصلحك الله ، أو وفقك الله للخيرات أو طول الله عمرك فى طاعته ، أو ما يجرى هذا المجرى ، فأما الدعاء بالحراسة وطول البقاء وإسباغ النعمة مع الخطاب بالمولى وما فى معناه فغير جائز ، فإن جاوز الدعاء إلى الثناء فسيذكر ما ليس فيه ، فيكون به كاذبا ومنافقا ، ومكرما لظالم ، وهذه ثلاث معاص ، فإن جاوز

ذلك إلى التصديق له فيما يقول ، والتزكية والثناء على ما يعمل : كان عاصيا بالتصديق وبالإعانة ، فإن التزكية والثناء إعانة على المعصية ، وتحريك الرغبة فيه ، كما أن التكذيب والذم والتقبيح زجر عنه وتضعيف لدواعيه . والإعانة على المعصية معصية ولو بشطر كلمة .

الحالة الثالثة : أن يعتزلهم فلا يراهم ولا يروه ، وهو الواجب ، إذ لا سلامة إلا فيه ، فعليه أن يعتقد بغضهم على ظلمهم ، ولا يحب بقاءهم ، ولايثنى عليهم ، ولا يستخبر عن أحوالهم ، ولا يتقرب إلى المتصلين بهم ، ولا يتأسف على ما يفوت بسبب مفارقتهم وذلك إذا خطر بباله أمرهم ، وإن غفل عنهم فهو الأحسن "[1].أ . هـ .

الغزالى يواجه الحكام بقول الحق :

ولم يقف الغزالى عند حد النقد لحكام عصره ، والتنديد بسياساتهم ، وظلمهم لرعيتهم فى كتبه ومصنفاته ، وخاصة (الإحياء) . بل تجاوز ذلك إلى مواجهتهم بالنصح وإن كان صعبا ، وقول الحق وإن كان مرا ، يشافههم حينا ، ويكتب إليهم أحيانا ، لا يخاف فى الله لومة لائم ، ولانقمة ظالم .

---

(١) الإحياء جـ ٢ / ١٤٢ ـ ١٤٦ .

ولقد سجل التاريخ نقده للسلطان السلجوقى سنجر بن ملك شاه ، الذى كانت خراسان كلها تحت حكمه حين قال له : " وأسفاه ! إن رقاب المسلمين كادت تنقض بالمصائب والضرائب ، ورقاب خيلك كادت تنقض بالأطواق الذهبية "[1] !

وكذلك بعث إلى أخيه الأكبر محمد بن ملك شاه ـ وكان أكبر ملوك عصره ـ رسالة ذكره فيها بمسؤليته ، وحذره من عقاب الله وغضبه ، ولفت نظره إلى إصلاح المملكة .

وبعث بعدد من الرسائل إلى (الوزراء) الذين كانوا يعتبرون فى ذلك العصر أعمدة السلطة التنفيذية ، بل كانوا هم الحكام الفعليين . وكانت رسائله إليهم بالفارسية التى يتقنها ويتقنونها .

وهو فى هذه الرسائل يجمع بين النقد والوعظ معا ، فهو ينكر ما يجب إنكاره مثل الإسراف فى المظاهر ، وادعاء الألقاب الفخمة ، وإهمال مصالح الناس ، وفى الوقت نفسه يرغب ويرهب ، ويخوف من الموت ، وحساب الله ، وعذاب الآخرة .

كما أن هذه الرسائل ـ كما يقول الأستاذ الندوى ـ مثال

(١) عن رسائل الغزالى بالفارسية ـ نقلا عن رجال الفكر والدعوة ص ٢٣٧ .

للشجاعة والصدع بالحق ، ومثال لقوة الإنشـاء ، وبلاغة التعبير .

يقول للوزير فخر الملك : صل ركعتين فى خلوة ، وتضرع إلى الله فى سجودك وقل : ياملكا لايزول ملكه ، ارحم ملكا قارب زوال ملكه ، وأيقظه من غفلته ووفقه لإصلاح رعيته ! .

ومما قال له :

" اعلم أن هذه المدينة (مدينة طوس) أصبحت خرابا بسبب المجاعات والظلم ، ولما بلغ الناس توجهك من أسفرائن ودامغان خافوا ، وبدأ الفلاحون يبيعون الحبوب واعتذر الظالمون إلى المظلومين واستسمحوهم ، لما كانوا يتوقعون من إنصاف منك ، واستطلاع للأحوال ، ونشاط فى الإصلاح ، أما وقد وصلت إلى طوس ، ولم ير الناس شيئا فقد زال الخوف ، وعاد الفلاحون والخبازون إلى ما كانوا عليه من الغلاء الفاحش والاحتكار ، وتشجع الظالمون ، وكل من يخبرك من أخبار هذه البلد بخلاف ذلك ، فاعلم أنه عدو دينك " .

" واعلم أن دعاء أهل طوس بالخير والشر مجرب ، وقد نصحت للعميد كثيرا ، ولكنه لم يقبل النصيحة ، وأصبح عبرة للعالمين ، ونكالا للآخرين ، اعلم يا فخر الملك ! أن هذه الكلمات لاذعة ، مرة ، قاسية ، لا يجرؤ عليها إلا من قطع

أمله عن جميع الملوك والأمراء ، فاقدرها قدرها ، فإنك لم تسمعها من غيرى ، وكل من يقول غير ذلك ، فاعلم أن طمعه حجاب بينه وبين كلمة الحق " .

وكتب إلى مجير الدين : " إن إغاثة الخلق واجبة على الجميع ، فقد تجاوز الظلم عن الحدود ، ولم أستطع أن أشاهد هذا الظلم ، فهاجرت من طوس ولى سنة ، حتى لا أشاهد هؤلاء الظلمة الذين لايعلمون رحمة ، ولا يراعون حرمة ، وقد ألجأتنى بعض الضرورات إلى زيارة البلد : فوجدت الظلم مستمرا لم ينقطع " .

ويقول فى هذه الرسالة لقد بلغت المدية العظم ، وبلغ السيل الزبى ، وكاد المسلمون يستأصلون ، وإن ما قسمه الموظفون من الدنانير على أهل البلد ـ أمانة من الملك ـ أخذوا أضعافها من الرعية ، وانتهبها الظالمون والسفلة من الناس ولم يصل منها شئ إلى السلطان [1]" .

تأثير الغزالى فى محيط الأمة الإسلامية :

ـ على أن الغزالى لم يتبوأ مكانته بين أمة الإسلام لمجرد عمله العلمى على أهميته وضخامته ولا لمجرد تصديه لفضح

(١) رسائل الغزالى بالفارسية نقلا عن المصدر السابق ص ٢٣٨ ـ ٢٣٩ .

الخطر الباطنى ، وللغزو الفكرى المتمثل فى فلسفة اليونان ، وهدمه الصنم الكبير بضربة ، سمع دويها فى المشرق والمغرب ، لم يتبوأ مكانته بهـذا فحسب ، بل تبوأها ـ بالإضافة إلى ذلك ـ بما وهبه الله من إشعاع روحى ، وتأثير وجدانى ، ترك أثره فى جماهير الأمة المسلمة على طول القرون إلى اليوم .

لقد كان قبل الغزالى عمالقة كبار من أئمة الإسلام ، مثل شيخه إمام الحرمين وشيخ شيخه القاضى الباقلانى وشيخ الباقلانى أبى الحسن الأشعرى ، وكلهم أئمة هدى ، ومصابيح دجى ، ولكن تأثيرهم كان فى محيط الخواص ، لم يتعدهم إلى محيط الأمة العام ، الذى أثر فيه الغزالى خريج مدرستهم ، وناشر علمهم وأفكارهم .

ترى ما السر وراء هذا التأثير الذى امتد عرضا فشمل أقطار الإسلام ، وطولا فشمل القرون والأعصار إلى اليوم ، وعمقا فأثر فى العقائد والأفكار والأخلاق والأعمال ؟ .

قد يقال : إن ذلك يرجع إلى قوة بيان الغزالى ووضوحه وسلاسته التى تمثل السهل الممتنع ، هذا البيان الذى تتجسد فيه القدرة على (تبسيط) المعقدات وتقريب أعوص المسائل إلى الأذهان ، بحسن الشرح وضرب الأمثال ، وجودة الترتيب الذى نجد فيه مهارة المعلم ، وحرارة الداعية حتى قيل بحق :

إنه معلم الجماهير .

وقد يقال : إن ذلك يرجع إلى عقل الغزالى الذى استوعب ثقافة عصره العقلية والشرعية ، ثم هضمها وتمثلها ، وأخرج منها من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين .

وقد يقال : إن شهرته فى عالم العلم ، ودنيا الفكر أولا ، ثم فى عالم المجاهدة الروحية ثانيا ، فتحت له العقول والقلوب ، فأقبلت على آثاره ، إقبال الظمآن على المورد العذب .

قد يقال هذا وقد يقال أكثر منه ، وكله له نصيب من الصحة .

بيد أن وراء هذا الإقبال من الأمة على الغزالى وآثاره ـ بالإضافة إلى ماذكر ـ سرا آخر ، يتمثل ـ فيما أرى ـ فى إخلاصه وتجرده لله ، وفنائه عن حظوظ نفسه فى مرضاة ربه ، والكلام إذا صدر من القلب نفذ إلى القلوب ، وإذا خرج من طرف اللسان لم يتجاوز الآذان ، وليست النائحة كالثكلى .

كان الإخلاص أكبر هم الغزالى ـ وقد أنضى راحلة عمره فى البحث عنه ، حتى ظفر به ، فيما يظهر لنا من سيرته . والله أعلم بالسرائر .

وفي مرض موته ، وقبيل رحيله من هذه الدنيا ، سأله بعض أصحابه : أوصنى فأوصاه بكلمة واحدة : عليك بالإخلاص ! فلم يزل يكررها حتى لحق بربه [1] .

وبالنسبة لى كان الإمام الغزالى هو أول من تعرفت عليه من أئمة الإسلام ، عن طريق كتابين من كتبه الجمة : كتاب صغير هو (منهاج العابدين) أخذته من قريب لى ، وكتابه الشهير : (إحياء علوم الدين) كان يقتنيه جار لنا ، كان على شيء من الفقه والتصوف .

كان ذلك فى وقت مبكر من حياتى ، أى فى الرابعة عشرة من عمرى تقريبا ، وأنا أخطو الخطوات الأولى إلى الأزهر الشريف ، ملتحقا بمعهد طنطا الدينى ، أما ابن تيمية ومدرسته التجديدية الشاملة ، فلم أتعرف عليه إلا بعد ذلك .

ومن الحق أن أقول : إن الغزالى قد أثر فى عقلى وقلبي معا ، فاستفدت منه لنفسى أولا ، وللناس بعد ذلك ، وكثيرا ما كنت أقرأ (الإحياء) فأشعر بحرارة الإخلاص لدى مؤلفه تهز كياني ، فتدمع عينى ، ويخشع قلبى ، وتصغر فى عينى الدنيا ، وتتجسد أمامى صورة الآخرة ، ولا أحسب ذلك إلا

---

(١) ذكر ذلك ابن الجوزى فى خاتمة ترجمته له فى كتابه (المنتظم) جـ ٩ ص ١٧٠ ، ط حيدر آباد . الهند .

أثرا لصدق المؤلف مع الله ، وهذه إحدى مزايا الغـزالى الكثيرة : الربانية المتجردة لله عز وجل ، التى تتمثل قول الله سبحانه : { قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ، لا شريك له } (سورة الأنعام : آية ١٦٢) .

لقد عاش الغزالى حياته أول الأمر كما يعيش جل علماء زمانه ، وعلماء زماننا ، أكبر همه الشهرة والجاه والمحمدة عند الناس ، والتفوق على الأقران ، والغلبة فى المناظرة ، وقد أدرك من ذلك حظا عظيما ، ثم انقشعت الغشاوة عن عين بصيرته ، فاكتشف أن هذا كله سراب بقيعة { يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا } ، فصمم على أن ينسحب من هذه الحلبة الصاخبة ، وينخلع من هذه الحياة الزائفة فى اعتقاده ، التى ظاهرها الدين ، وباطنها الدنيا ، وأن يعيش حياة أخرى قوامها الزهد والتجرد والإخلاص لله ، حياة يرى أن علمه وتعليمه ومحياه ومماته فيها لله رب العالمين لا شريك له ، وهكذا كما قال التاج السبكى : ترك الدنيا وراء ظهره وأقبل على الله يعامله فى سره وجهره [1] .

وقد سجل الغزالى قصة حياته الفكرية والنفسية بقلمه البليغ ، تسجيلا مؤثرا بما فيه من وضوح وصدق ، فى كتابه الفريد (المنقذ من الضلال ، والموصل إلى ذى العزة والجلال)

---

(١) طبقات الشافعية جـ ٦ ص ١٩٣ .

الذى يعد ـ على وجازته ـ من أهم ما خطه قلم الغزالى ، وما أنتجه فكره المعطاء ، والذى يقول عنه أستاذنا المدعو له بالرحمة الدكتور محمد يوسف موسى : هذا الكتاب لانعرف أى مفكر أو فيلسوف كتب مثله أو مايدانيه ، فهو اعترافات بخلجات نفسه ، وحركات قلبه وعقله ، حتى وصل مما أراد إلى خاتمة المطاف [1] .

وكان قد تأكد له بعد رحلته الحافلة في البحث عن اليقين : أن السعادة الحقيقية هى سعادة الآخرة ، وأن لا مطمع فيها إلا بالتقوى وكف النفس عن الهوى وأن رأس ذلك كله قطع علاقة القلب عن الدنيا ، بالتجافى عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود ، والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى ، وأن ذلك لايتم إلا بالإعراض عن المال والجاه ، والهرب من الشواغل والعلائق .

يقول : ثم لاحظت أحوالى ، فإذا أنا منغمس فى العلائق ، وقد أحدقت بى من الجوانب ، ولاحظت أعمالى ـ وأحسنها التدريس والتعليم ـ فإذا أنا فيها مقبل على علوم غير مهمة ولا نافعة فى طريق الآخرة .

---

(٢) فلسفة الأخلاق فى الإسلام ص ١٣٠ وقال فيه المستشرق الإنجليزى نيكلسون : وقد خلف لنا صفحات لا تقل فى جمالها عن كتاب نيومان المسمى (أبولوجيا) (فى التصوف الإسلامى ص ٨٣) .

ثم تفكرت فى نيتى فى التدريس ، فإذا هى غير خالصة لوجه الله تعالى ، بل باعثها ومحركها طلب الجاه ، وانتشار الصيت ! فتيقنت أنى على شفا جرف هار ، وأنى أشفيت على النار إن لم اشتغل بتلافى الأحوال [1].

ظل الغزالى مترددا بين تجاذب شهوات الدنيا ، ودواعى الآخرة ، قريبا من ستة أشهر ، من أول رجب سنة ثمان وثمانين وأربعمائة ، حتى جاوز الأمر حد الاختيار إلى الاضطرار ، فلم يعد قادرا على الكلام ولا على هضم الطعام ، وساء حاله ، وضعف بدنه ، فلجأ إلى الله لجوء المضطر ، أن يسهل عليه الإعراض عن حياته هذه ، فأجابه الذى يجيب المضطر إذا دعاه ، وترك بغداد وأستاذية المدرسة النظامية بها ، وساح فى أرض الله حاجا أولا ، ثم متنقلا بين دمشق والقدس ، وغيرهما من المدن حيناً وبين البرارى والقفار حينا آخر .

هكذا اعتزل الغزالى دنيا الناس ـ بما فيها تدريس العلوم الشرعية ـ لما رأى نيته فيها مشوبة غير خالصة لله تعالى ، إنما هو طلب الجاه ، والشهرة وانتشار الصيت ، وكان ذلك نتيجة تأمل فاحص فى أعماق نفسه ، وتحليل صادق لدوافعها ، فلم يخدعه الظاهر عن الباطن ، ولا الصورة عن الحقيقة ، ولا العنوان عن المضمون .

(١) المنقذ ص ١٣٩ ـ ١٤٠ .

ولم يكن هذا بالأمر الهين على من عاش ملء السمع والبصر ، تشير إليه الأصابع وتشرئب نحوه الأعناق ، وتتحدث عنه المجالس ، وتسير بذكره الركبان ، يعظمه العامة والخاصة ، ويذعن له العلماء ، ويقربه السلاطين والوزراء ـ أو كما قال ابن السبكى : عظيم الجاه ، زائد الحشمة ، عالى الرتبة ، مسموع الكلمة مشهور الاسم ، تضرب به الأمثال وتشد إليه الرحال[1] ـ لولا إرادة صادقة فى ابتغاء ما عند الله ، واعتزال ما عند الناس ، إرادة لا تتهيأ إلا للأفذاذ الذين أخلصوا دينهم لله ، وأخلصهم الله لدينه ، مع لجوء إلى الله واعتصام به ، وابتهال إليه ، أن يسهل على قلبه الإعراض عن الدنيا وزينتها ، من الجاه والمال والولد والأصحاب ، وقد علم الله مافى قلبه فاستجاب له .

اعتزل الغزالى الناس والحياة بما فيها من جاه ، وشهرة طبقت الآفاق ، مخلدا إلى حياة الزهد والخشونة ، منكبا على مجاهدة النفس ، والارتفاع بها من جاذبية الطين والحمأ المسنون ، إلى أفق يشير إليه قوله تعالى : { ونفخت فيه من روحى } وقوله صلى الله عليه وسلم : « إن الله خلق أدم على صورته » .

حكى لنا الإمام القاضى أبو بكر بن العربى كيف لقيه فى

---

(١) طبقات الشافعية جـ ٦ ص ١٩٧ .

هذه الفترة [1] فقال :

رأيت الإمام الغزالى فى البرية ، وبيده عكازه ، وعليه مرقعة ، وعلى عاتقه ركوة ، وقد كنت رأيته ، ببغداد يحضر مجلس درسه ، نحو أربعمائة عمامة من أكابر الناس وأفاضلهم يأخذون عنه العلم ، فقلت له : يا إمام ، أليس تدريس العلم ببغداد خيرا من هذا ؟ قال : فنظر إلىّ شزرا ، ثم قال : لما طلع بدر السعادة فى سماء الإرادة :

تركت هوى ليلى وسعدى بمعزل
وعدت إلـى تصحيـح أول منزل !
ونادت بى الأشواق : مهلا فهذه
منازل من تهـوي ، رويدك فانزل !

استمرت عزلة الغزالى نحو عشر سنوات ، تاركا للناس فيها دنياهم التى يتصارعون عليها حتى التعليم وتدريس العلوم الشرعية ، الذى رأى أن نيته فيه لم تكن خالصة لوجه الله تعالى .

ولكن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء ، فقد بدأ الغزالى نفسه الذى قطع نفسه عن الشواغل والعلائق يفكر فى العودة ، والقيام بواجب الدعوة والحركة

(١) ذكرها ابن العماد فى (الشذرات) جـ ٤ ص ١٣ .

لإحياء الدين .

تأمل الغزالى المجتمع من حوله ، فرأى الضعف أو الفتور فى الإيمان بأصل النبوة ثم فى حقيقة النبوة ، ثم فى العمل بما شرعته النبوة ، وتحقق شيوع ذلك بين الناس ، ونظر إلى أسبابه ، فوجد بعضها يأتى من قبل الفلسفة والخائضين فيها ، وأن الدين للعوام ، والفلسفة للخواص ... وبعضها من قبل أدعياء التصوف الذين يزعمون أنهم بلغوا مبلغا ترقوا فيه عن الحاجة إلى العبادة .. وبعضها من علماء السوء الذين نفروا الناس عن الدين باتباعهم نزغات الشياطين ، وأهواء السلاطين ، بالإضافة إلى فتنة الباطنية وما آثارته من شكوك وشبهات ، وما أغرت به من مطامع وشهوات .

رأى الغزالى فى ذلك الوقت أن خروجه من الصومعة متعين عليه محتوم ، (فما تغنى الخلوة ، والعزلة ، وقد عم الداء ومرض الأطباء ، وأشرف الخلق على الهلاك) وهو يرى نفسه أهلا لكشف شبهات هؤلاء جميعا بكل يسر ، حتى أنه يرى فضحهم أيسر عنده من شربة ماء على حد تعبيره رضى الله عنه .

لقد خرج الغزالى من عزلته بعد تردد وتفكير طويل ،

---

(١) انظر : المنقذ ص ١٥٥ بتقديم د. عبد الحليم محمود .

ومشاورات مع أصحاب القلوب والبصائر ، وكلهم أشار عليه بترك صومعته ، والرجوع إلى الإفادة والتدريس ، لاعتبارات شرعية مقنعة ، ورؤى منامية مبشرة ، واستشراف إلى ما وعد الله سبحانه على لسان رسوله بإحياء دينه على رأس كل مائة سنة ، وهو الآن على مشارف المائة الخامسة .

وقد عاد الرجل ، ولكن بقلب غير القلب ، وروح غير الروح ، وهو يقول عن نفسه : " وأنا أعلم أنى وإن رجعت إلى نشر العلم ، فما رجعت ! فإن الرجوع عود إلى ما كان ، وكنت فى ذلك الزمان أنشر العلم الذى به يكسب الجاه ، وأدعو إليه بقولى وعملى ، وكان ذلك قصدى ونيتى ، وأما الآن فأدعو إلى العلم الذى به يترك الجاه ، ويعرف به سقوط رتبة الجاه .

هذا هو الآن نيتى وقصدى وأمنيتى ، ويعلم الله ذلك منى .

وأنا أبغى أن أصلح نفسى وغيرى ، ولست أدرى أأصل إلى مرادى أم أخترم دون غرضى ؟ .. ولكنى أؤمن إيمان يقين ومشاهدة ، أنه لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، وأنى لم أتحرك ، ولكنه حركنى ، وأنى لم أعمل ، ولكنه استعملنى . فأسأله أن يصلحنى أولا ، ثم يصلح بى ، وأن يهدينى ، ثم يهدى بى ، وأن يرينى الحق حقا ، ويرزقنى

اتباعه ، ويرينى الباطل باطلا ويرزقنى اجتنابه[1] " .

إن قصة تطليق الغزالى للدنيا ومناصبها ، وقد جاءت تسعى إليه ركضا ، وقصة مجاهدته وكفاحه فى سبيل وصوله إلى اليقين ، والقرب من الله سبحانه ، كان لها تأثيرها البالغ فى الحياة الإسلامية فكراً وشعوراً وسلوكاً ، فإن المرء يؤثر بحاله أكثر مما يؤثر بمقاله ، وليس من المبالغة قول بعض الحكماء : حال رجل فى ألف رجل ، أبلغ من مقال ألف رجل فى رجل !

ومن عجائب الأقدار أن الرجل الذى فر إلى العزلة ، بُعدا بنفسه عن طلب الشهرة وانتشار الصيت ، وحب الجاه والمنزلة فى قلوب الخلق ـ هذا الرجل غدا اسمه من أشهر الأسماء فى تاريخ العلم والفكر والزهد بين المسلمين وغيرهم ، إلى اليوم !

أما ماخلفه من ثروة علمية ، فحدث ولا حرج ، ويكفى منها (الإحياء) الذى لايعرف كتاب بعد القرآن والصحاح ـ أثر فى حياة المسلمين مثله ، حتى قيل فيه : كاد الإحياء يكون قرآنا !

---

(١) المنقذ ص ١٥٧ .

تأثير الغزالى خارج العالم الإسلامى :

لم يقف تأثير الغزالى عند حدود العالم الإسلامى ، بل تعداها إلى عالم الغرب ، ووضح أثره . كما بين (بالاسيوس) . فى لاهوتيى اليهود الذين اعتمدوا على الغزالى فى كثير من آرائهم ، وذكر أن فى كتبهم المشهورة مقاطع كاملة ، بل صفحات من كتب الغزالى : مقاصد الفلاسفة ، والتهافت ، والمنقذ ، والإحياء ، والميزان وغيرها ... وذلك بعد ماترجموها فى القرن الثالث عشر للرد على فلاسفة عصرهم ، فمهدوا لنشر كتبه فى أوروبا ، وكثر الإقبال عليها[1] .

كما أثر الغزالى فى كثير من مفكرى النصرانية فى أوروبا ، الذين استفادوا من كتبه واستندوا إلى آرائه ، مثل القديس الفيلسوف الأكوينى ، وباسكال وغيرهم [2].

وحسبنا أنه كان له تأثير على أعظم شخصية فلسفية غربية فى العصر الحديث ، أعنى (ديكارت) الذى يعد أبا الفلسفة الحديثة ، وقد بدأ أثر الشك المنهجى عند الغزالى ـ الشك

---

(١) دراسات فى تاريخ الفلسفة العربية الإسلامية ورجالها ، لعبده الشمالى ص ٥٥٣ .

(٢) المصدر نفسه ص ٥٥٤ . وانظر : تاريخ الفكر الفلسفى فى الإسلام للدكتور أبو ريان ص ٥٠٩ .

الذى يراد به الوصول إلى اليقين - واضحا فى منهج ديكارت وقد دلت دراسات الدارسين إلى التشابه الكبير بين المنهجين ، واستنتجوا أن يكون اللاحق قد تأثر بالسابق ، لاسيما أن كتب الغزالى قد ترجمت إلى أوروبا ... ولكن قد أثبت البحاثة التونسى الأستاذ عثمان كعاك - رحمه الله - أنه زار مكتبة (ديكارت) فى باريس ، فوجد فيها نسخة مترجمة من كتاب (المنقذ من الضلال) للإمام الغزالى ، وقد علق ديكارت بخطه على الأجزاء الخاصة بالشك قائلا : تنقل هذه إلى منهجنا [1] .

وقد أعجب به كثير من المستشرقين ، حتى قال فيه (رينان) ما ذكرناه من قبل وقال (مونخ) الألمانى : إن عظمة الغزالى فى نظرنا ترتكز على شكه الذى بوأه مركزا مرموقا فى تاريخ فلسفة الغرب .

وقال (كارا دى فو) الفرنسى : أنه سبق (كانت) إلى نظرية (عجز العقل) ، وأن كتاب (التهافت) خير ماوضع لدرس قيمة العقل[2].

---

(١) نقل ذلك عنه الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريدة . انظر : المنهج الفلسفى بين الغزالى وديكارت . مقدمة الطبعة الثانية للدكتور / محمود زقزوق ، ط . مكتبة الأنجلو القاهرة .

(٢) دراسات فى تاريخ الفلسفة - مصدر سبق ذكره .

هذه لمحات من سيرة الغزالى العامرة الخصبة ، وجهوده الحافلة المتنوعة فى خدمة الدين ، ومقاومة خصومه ، وإحياء علومه ، وتجديد أثره فى العقول والمشاعر والعزائم ، حتى استحق أن يطلق عليه (حجة الإسلام) .

وقفة مع الناقدين للغزالى

كان أبو حامد الغزالى (ت ٥٠٥ هـ) عند جمهور المتقدمين ، حجة الإسلام ، ومجدد المائة الخامسة ، ومحيى علوم الدين ، وقد أشرنا فيما سبق إلى كلام كثير منهم كعبد الغافر الفارسي ، والأسنوى والسبكى وابنه ، وابن كثير ، وابن العماد الحنبلى ، وغيرهم من المعجبين به ، والمثنين عليه ، والمقتفين لخطاه .

الناقدون للغزالى من المتقدمين :

ولكن الغزالى ـ كغيره من عظماء التاريخ ، وقادة الفكر ـ لابد أن يختلف الناس فى تقويمه ، ما بين مادح وقادح ، سنة الله فى خلقه ، فلا عجب أن نجد بجوار هؤلاء جماعة آخرين انتقدوه ـ كل فى مجاله ـ فأنكروا عليه بعض ما كتب من مصنفات ورسائل ، أو بعض ما تبناه من أفكار ومفاهيم وقيم ، أو بعض ما اختاره من طريقة فى الزهد والسلوك ، أو بعض أساليبه فى النقد والمعارضة .. إلى غير ذلك ، على تفاوت بينهم فى درجة الإنكار ، وقوة المعارضة ، وقسوة الهجوم .

نقد الطرطوشي : [1]

من هؤلاء العلامة أبو بكر الطرطوشي المالكي (ت ٥٢٠ هـ) ، الذى اتهم الغزالى بأنه هجر العلم إلى العمل ، ودخل فى علوم الخواطر وأرباب القلوب ، ووساوس الشيطان ! ثم شابها بآراء الفلاسفة ، ورموز الحلاج ، وجعل يطعن على الفقهاء والمتكلمين ، حتى قال عنه : إنه غير أنيس بعلوم الصوفية ولا خبير بها !!

هذا ما نقله عنه العلامة تاج الدين ابن السبكى فى كتابه الشهير (طبقات الشافعية) ، فى ترجمته للغزالى .

وقد رد عليه ابن السبكى بأن هذه دعاوى عارية عن الدلالة ، قال : وما أدرى كيف استجاز فى دينه أن ينسب هذا الحبر إلى أنه دخل فى وسوسة الشيطان ؟ !

كما رد ابن السبكى على دعوى شوبه علوم الصوفية بآراء الفلاسفة بأنه لم يصنف (الإحياء) إلا بعدما ازدرى علومهم ، وحذر من كتبهم ، وليس فى الكتاب للفلسفة مدخل .. والرجل

(١) الطرطوشى هو : محمد بن محمد ، أبو بكر الطُرطوشى من أهل طُرطوشة بشرق الأندلس ، من فقهاء المالكية الحفاظ ، ولد سنة ٤٥١ هـ وتوفى سنة ٥٢٠ هـ وله مؤلفات جليلة ، منها « سراج الملوك » و « التعليقة » فى الخلافيات . انظر : الأعلام للزركلى (٣٥٩/٧) .

ينادى على كافتهم بالكفر . وأنكر أن يكون فى الكتاب رموز غير إشارات القوم التى لا ينكرها عارف ! قال : وليس للحلاج رموز يعرف بها ، وأما دعواه أنه غير أنيس بعلوم الصوفية ، فمن الكلام البارد ، فإنه لا يرتاب ذو نظر بأن الغزالى كان ذا قدم راسخ فى التصوف .

نقـد المـازرى :

وبعد الطرطوشى الإمـام أبو عبد الله المازرى المالكـى (ت ٥٣٦ هـ) الذى أنكر على الغزالى فى (الإحياء) الاستناد إلى الأحاديث الواهية ، وأنه يستحسن أشياء مبناها على مالا حقيقة له ، كما أنكر قوله : من مات بعد بلوغه ولم يعلم أن البارىء قديم مات مسلما إجماعا .. أنكر القول ، وأنكر نقل الإجماع فيه .

وأنكر بشدة على الغزالي دعواه أن فى علومه ما لا يسوغ أن يودع فى كتاب ، قال : إن كان حقا فلمَ لا يودع فى الكتب ؟ ألغموضه ودقته ؟ .. فما المانع أن يفهمه عليه ؟ .. وذكر أنه قرأ (الفلسـفة) قبل استبحـاره فى علـم أصـول الدين (الكلام) فأكسبته الفلسفة جرأة على المعانى ، وسهولة الهجوم على الحقائق .

ورد ابن السبكى على المازرى ، وبين علة ذلك ، وهى تعصبه فى الكلام للأشعرى ، وفى الفقه لمالك ، والغزالى ـ كشيخه إمام الحرمين ـ ربّما خالفا الشيخ الأشعرى فى مسائل من علم الكلام والمغاربة يستصعبون ذلك ، حتى قال المازرى فى مسألة خالف فيها إمام الحرمين أبا الحسن الأشعرى ، وليست من المسائل المهمة : « من خطأ شيخ السنة أبا الحسن الأشعرى فهو المخطأ » !

وربما ضعفا مذهب مالك فى كثير من المسائل ، كما فعلا فى مسألة المصالح المرسلة .

هذا إلى اختلاف الطرق والأذواق ، فطريقة المازرى الجمود على ظاهر العبارات ، والوقوف معها ، والغزالى يتعمق فى الحقائق ، ويميل إلى إشارات القوم (يعنى الصوفية) ، واختلاف الطريقين يوجب تباين المزاجين ، ويعدما بين القلبين ، لا سيما قد انضم إليه المخالفة فى المذهب .

ثم رد ابن السبكى على المازرى انتقاداته على الغزالى ، فبين من الناحية التاريخية أن الغزالى لم ينظر فى الفلسفة إلا بعد ما استبحر فى علم الكلام ، كما ذكر ذلك فى (المنقذ) .

وأما دعوى الجرأة على المعانى ، فليست له جرأة إلا حيث دله الشرع ، ويدعى خلاف ذلك من لا يعرف الغزالى .

وأما ما عاب به (الإحياء) من توهية بعض الأحاديث ، فالغزالى معروف بأنه لم تكن له فى الحديث يد باسطة .

وعامة ما فى (الإحياء) من الأخبار والآثار مبدًّد فى كتب من سبقه من الصوفية والفقهاء .

وأما الأحاديث الموضوعة فى كتابه ، فليس هو الذى وضعها ، حتى ينكر عليه !

وأما مسألة من مات ولم يعلم (قِدَم البارى) ففرق بين عدم الاعتقاد بالقدم واعتقاد أن لا قِدَم ، والثانى هو الذى أجمعوا على تكفيره .

وكلام الغزالى فى (المسلم الساذج) المؤمن بالله على الجملة ، فهو الذى ادعى الغزالى الإجماع على أنه مؤمن ناج ، من حيث مطلقُ الإيمان الجملى .

وأما ما أشار إليه الغزالى من العلم الذى لا يودع في كتاب ، فهو يدافع عنه بشدة بأن للعلوم دقائق نهى العلماء عن الإفصاح بها ، خشية على ضعفاء الخلق ، وأمورا أخر لا تحيط بها العبارات .

واستدل بما روى البخارى فى صحيحه من قول على كرم الله وجهه : حدثوا الناس بما يعرفون ، أتحبون أن يكذب الله ورسوله ؟!

نقل عن الشافعى : أنه كان يذهب إلى أن القاضى يقضى بعلمه ، وكان لا يبوح به مخافة قضاة السوء[1] .

ولاشك أن بعض دفاع ابن السبكى قابل للمناقشة والرد .

نقـد ابن الصـلاح :

ومن منتقدى الغزالى : الحافظ تقى الدين ابن الصلاح ، بسبب إدخاله (المنطق) فى علم (أصول الفقه) وقوله فى أول (المستصفى) : هذه مقدمة العلوم كلها ، ومن لا يحيط بها فلا ثقة بعلومه أصلا ، فقد اعترض ابن الصلاح على الغزالى فى ذلك بأن الصحابة وسلف الأمة لم يعرفوا المنطق ، وعنهم أخذ علم الدين .

وقد رد الإمام التقى السبكى على ابن الصلاح ، كما نقله

(١) طبقات الشافعية جـ ٦ ص ٢٥٣ وما بعدها ، وانظر : المدرسة السلفية وموقفها من علم المنطق وعلم الكلام للزميل الدكتور/ محمد عبد الستار نصار ص ٢٩٣ ـ ٣٠٢ ففيها مناقشة موسعة لفتوى ابن الصلاح فى تحريمه الاشتغال بالمنطق ، وقد شارك ابن الصلاح فى ذلك عدد من علماء المذاهب فى المشرق والمغرب مثل أبى إسحاق المرغينانى ، وابن عقيل ، وابن الجوزى ، والقشيري ، والطرطوشى والمازرى والنووى وأبي شامة ، وابن تيمية .

عنه ابنه فى (الطبقات) وبين ما جد من الحاجة إلى المنطق ، حيث لم تكن هذه الحاجة قائمة فى عهد الصحابة والتابعين ، لا إليه ولا إلى غيره من العلوم التى كانت حاصلة عندهم بأصل الفطرة والنشأة ، وجهد فى تحصيلها من بعدهم ، مثل أصول الفقه واللغة والنحو والتصريف وغيرها .

قال : ولا ينكر فضل الشيخ تقى الدين (ابن الصلاح) وفقهه وحديثه ودينه ، وقصده الخير ، ولكن لكل عمل رجال .

نقــد ابن الجــوزى :

وممن انتقد الغزالى بقوة : الحافظ النقاد المؤرخ الفقيه أبو الفرج ابن الجوزى (ت ٥٩٧) وذلك فى مواضع عدة من كتابه النقدى القيم (تلبيس إبليس)[١]، كما عرض لشئ من ذلك فى ترجمته للغزالى فى كتابه (المنتظم)[٢] .

وذكر أنه ألف كتابا خاصا جمع فيه مآخذه على الإحياء سماه (إعلام الأحياء ، بأغلاط الإحياء) لم يتح لى الاطلاع عليه ، وأحسبه لم يطبع .

---

(١) انظر على سبيل المثال الصفحات : ١٦٥ ، ١٧٦ ، ٢١٣ ، ٢١٧ ، ٣٠١ ، ٣٢٣ ، ٣٣٩، ٣٥٢ ، ٣٥٤ ، ٣٥٥ ، ٣٦١ .
(٢) جـ ٩ ص ١٦٨ ـ ١٧٠ .

ومأخذه الأساسي على الإحياء أمران :

الأول : أنه وضعه على مذهب الصوفية ، وترك فيه قانون الفقه ، وعلل ذلك بأنه صحب الصوفية ، فرأى حالتهم الغاية ، ونظر فى كتبهم ، وكلام القدماء منهم فاجتذبه ذلك بمرة عما يوجبه الفقه [1] .

ومن قرأ (التلبيس) وجد فيه شيئا كثيرا من ذلك ، وهو يعجب كيف يصدر هذا من فقيه مثله ! أو يقول : عزيز عليّ أن يصدر هذا من فقيه !!

وأحيانا يذكر ما ينقله الغزالى عن الحارث المحاسبى ، ويعجب منهما علي علمهما كيف يقولان ذلك ؟!

ثم يقول : والحارث أعذر عندى من أبى حامد ؛ لأنه كان أفقه [2] .

وذكر مرة ما حكاه أبو حامد من أحوال الصوفية ، ومبالغاتهم فى الزهد والسلوك وهضم النفس وتربية المريدين ، إلى حد معاقبة النفس بالوقوف على الرأس طول الليل أو رمى المال فى البحر ـ بدل التصدق به ـ خشية الرياء ، ثم قال [3] :

---

(١) المصدر السابق ص ١٦٩ .
(٢) انظر : تلبيس إبليس ص ١٧٦ .
(٣) نفسه ص ٣٥٢ ، ٣٥٣ .

« وإنى لأتعجب من أبى حامد كيف يأمر بهذه الأشياء التى تخالف الشريعة ، وكيف يحل القيام على الرأس طوال الليل ؟ وكيف يحل رمى المال فى البحر ، وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن إضاعة المال ؟ إلى أن قال : فما أرخص ما باع أبو حامد الغزالى الفقه بالتصوف !!

والمأخذ الثانى : أنه ذكر فى (الإحياء) من الأحاديث الموضوعة وما لا يصح غير قليل ، قال : وسبب ذلك قلة معرفته بالنقل ، فليته عرض تلك الأحاديث على من يعرف ، وإنما نقل حاطب ليل[1] .

والعجيب أن ابن الجوزى نفسه لم يسلم مما عاب به الغزالى وأخاه أحمد الواعظ ، فحشا كتبه الوعظية بما لا يصح ولا يثبت ، مثل كتابه (ذم الهوى) ، وغلبت فيه طبيعة الواعظ ، على طبيعة الناقد الحافظ ، صاحب كتب (الموضوعات) ، و (العلل المتناهية) وغيرها !

ومن قبل لاحظ ذلك العلامة المؤرخ (ابن الأثير) وسجله على ابن الجوزى[2] والمعصوم من عصمه الله .

(١) المنتظم لابن الجوزى جـ ٩ ص ١٦٩ .
(٢) عند حديثه عن أحمد الغزالى الواعظ ـ شقيق الإمام أبى حامد ـ وانتقاد ابن الجوزى له بروايته الأحاديث التى لم تصح فى وعظه ، قال : والعجب أنه يقدح فيه بهذا ، وتصانيفه هو ووعظه محشو به ، مملوء منه ! (الكامل جـ ١٠/ ٦٤٠ ط بيروت) .

نقـــد ابن تيميــة :

ومن الذين انتقدوا الغزالى بشدة من المتقدمين شيخ الإسلام ابن تيمية (ت ٧٢٨) الذى تميز عن الغزالى بتبحره فى علم الحديث وفقهه رواية ودراية ، حتى قيل : كل حديث لا يعرفه ابن تيمية فليس بحديث : فجمع بين المنقول والمعقول ، وبين آثار السلف وعلوم الخلف ، مع يقين لا يتزعزع بوجوب (الاتباع) الصارم ، لما كان عليه الصحابة ومن تبعهم من خير القرون .

تعقب ابن تيمية أبا حامد الغزالى فى (الرسالة السبعينية) معلقا على بعض ما ذكره الغزالى فى بعض كتبه ، مثل (معيار العلم) و (فيصل التفرقة) و (وجواهر القرآن) من أقوال وتأويلات ، رآها مخالفة لمنهج السلف ، وأنها من جنس كلام الفلاسفة والقرامطة الذين طالما أنكر عليهم ، ومما قاله هنا : (وصاحب « الجواهر » ـ لكثرة نظره فى كلامهم ، واستمداده منهم ـ مزج فى كلامه كثيرا من كلامهم ، وإن كان قد يكفرهم بكثير مما قد يوافقهم عليه فى موضع آخر !)[1] وهو يحذر من الاغترار بكلام الغزالى هنا خاصة ، لما لـه من الحرمة والمنزلة عند المسلمين .

---

(١) الرسالة السبعينية ص ٤٢ ضمن الفتاوى الكبرى . ط . فرج الله الكردى جـ ٥ وانظر ص ١٠٧ أيضا .

وفى (الفتاوى الكبرى) يتحدث عن (الإحياء) وأن فيه فوائد كثيرة ، لكن فيه مواد فاسدة من كلام الفلاسفة تتعلق بالتوحيد والنبوة والمعاد ، والخطر فى خلطها بمعارف الصوفية ، فتكون بمنزلة من أخذ عدوا للمسلمين ، فألبسه ثياب المسلمين ! وقد أنكر أئمة المسلمين على أبى حامد هذا فى كتبه وقالوا : أمرضه (الشفاء) ! يعنون (شفاء) ابن سينا فى الفلسفة .. وفيه أحاديث وآثار ضعيفة ، بل موضوعة كثيرة .

وفيه أشياء من أغاليط الصوفية وترهاتهم .

ويعترف ابن تيمية منصفا بأن فى (الإحياء) ـ مع ذلك ـ من كلام المشايخ الصوفية العارفين المستقيمين فى أعمال القلوب ، الموافق للكتاب والسنة ، ومن غير ذلك من العبادات والأدب ـ مما هو موافق للكتاب والسنـة ـ ماهو أكثر مما يرد منه ، فلهذا اختلف فيه اجتهاد الناس وتنازعوا فيه .[1] .

كما رد عليه فى (الفتاوى) فى قوله : إن تعلم المنطق فرض كفاية ، واعتبر هذا غلطا عظيما عقلا وشرعا ، وذكر أن بعض المنطق حق ، وبعضه باطل ، وأن أكثر ما فيه من حق لا يحتاج إليه ، والقدر الذى يحتاج إليه منه تستقل به الفطر السليمة ، وأكد أنه علم لا ينتفع به البليد ، ولا يحتاج إليه الذكى[2] ، وفصل ذلك فى رده على المنطقيين .

(١) الفتاوى الكبرى جـ ٢ ص ١٩٤ .

(٢) نفسه ص ١٩٥ .

وفى كتابه (نقض المنطق) نراه يحاسب الغزالى على أساس توثيق الكتب المشكوك فى نسبتها إليه مثل (المضنون) و (المشكاة) و (المعارج) ونحوها ، لتشابه كلامه فيها مع الكتب الأخرى الثابتة النسبة إليه . وهذا وحده لا يكفى لإثبات نسب هذه الكتب من الغزالى عند الإنصاف .

تعقيب وتقويم :

لا نزاع فى أن هؤلاء الذين نقدوا الإمام الغزالى أئمة كبار أيضا ، ولا ريب أنهم فيما أخذوه على الغزالى لم يكونوا أصحاب هوى ولا غرض دنيوى ، ولكن كثيرا من مآخذهم على أبى حامد ، راجع إلى اختلاف المشارب والأمزجة والثقافات ، كما أشار إلى ذلك الإمام تقى الدين السبكى ، وابنه التاج السبكى فيما ذكرناه من قبل .

ومما ينبغى أن نسجله هنا : أن الذين انتقدوا الغزالى لم يغمطوا حقه فيما أحسن فيه ، بل كلهم أشاد بعلمه ونبوغه وفضله .

فالطرطوشى يقول عنه : رأيت الرجل ، وكلمته ، فرأيته رجلا من أهل العلم ، قد نهضت به فضائله ، واجتمع فيه العقل

والفهم ، وممارسة العلوم طول زمانه .[1]

وابن الجوزى يقول : صنَّف الكتب الحسان ، فى الأصول والفروع ، التى انفرد بحسن وضعها وترتيبها وتحقيق الكلام فيها[2] ، ومع انتقاده لكتاب (الإحياء) نراه عمل على اختصاره وتلخيصه فى مهذب منه سماه (منهاج القاصدين) .

وابن تيمية رغم نقده للإحياء يقول : إن فيه من المواد النافعة أكثر مما يرد منه .

ومع هذا لم يسعهم أن يسكتوا عما يرونه خطأ أو باطلا من كلام الغزالى ، نصحا لله ولرسوله وللمؤمنين ، فلم يكن بينهم وبين الغزالى محاسدة أو منافسة ، ولكن ليس فى العلم كبير ، وكل أحد ـ دون رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ يؤخذ منه ويرد عليه .

الغزالى والتصوف :

ومما لاريب فيه أن أبرز ما أخذ على الغزالى : اندماجه فى طريق الصوفية اندماجا يكاد يكون كاملا ، وإذعانه لما عند القوم من معارف وأحوال وأعمال ، دون أن يحاكمها إلى منطق الفقه وأصوله .

(١) طبقات الشافعية جـ ٦ / ٢٤٣ .
(٢) المنتظم جـ ٩ / ١٦٨ .

فقد ذكر فى (المنقذ) أنه ـ بعد أن سبر ما عند الفلاسفة والمتكلمين والباطنية ولم يجد فيها ما يهبه اليقين ، ويهديه إلى الحقيقة التى ينشدها ـ انتهى به المطاف إلى طريق الصوفية . فعلم يقينا ـ كما يقول هو ـ أنهم (هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة ، وأن سيرتهم أحسن السير ، وطريقهم أصوب الطرق ، وأخلاقهم أزكى الأخلاق . بل لو جمع عقل العقلاء ، وحكم الحكماء ، الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ، ليغيروا شيئا من سيرهم وأخلاقهم ، ويبدلوه بما هو خير منه ، لم يجدوا إلى ذلك سبيلا .. وأنَّ جميع حركاتهم وسكناتهم فى ظاهرهم وباطنهم ، مقتبسة من نور النبوة ، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به) .

(وبالجملة : فماذا يقول القائلون فى طريقة طهارتها ـ وهى أول شروطها ـ تطهير القلب بالكلية عما سوى الله تعالى .. ومفتاحها ـ الجارى منها مجرى (التحريم) من الصلاة ـ استغراق القلب بالكلية بذكر الله .. وآخرها : الفناء بالكلية فى الله ؟!) . وهذا الآخر بالإضافة إلى ما يدخل تحت الاختيار والكسب ولكن الترقى مستمر حتى ينتهى إلى درجات يضيق عنها نطاق النطق ، ولا يحاول معبر أن يعبر عنها إلا اشتمل لفظه على خطأ صريح ، لا يمكن الاحتراز عنه ، قال : وعلى الجملة : ينتهى الأمر إلى قرب يكاد يتخيل منه طائفة (الحلول) وطائفة (الاتحاد) وطائفة (الوصول) وكل

ذلك خطأ .. بل الذى لابسته تلك الحالة ، لا ينبغى أن يزيد على أن يقول :

وكان ما كان مما لست أذكره
فظن خيرا ولا تسأل عن الخبر[1]!

هكذا كان دخول الغزالى إلى التصوف دخول المحب العاشق ، لا دخول الفاحص الناقد ، فلم ينظر إلى علوم الصوفية وتراثهم بعين النقد التى نظر بها إلى علوم الفلاسفة والمتكلمين والباطنية ، بل بعين الرضا والحب ، والحب يعمى ويصم .

وعين الرضا عند كل عيب كليلة
كما أن عين السخط تبدى المساويا .
وإذا الحبيب أتى بذنب واحد
جاءت محاسنه بألف شفيع !

وسر هذا أنه تعامل مع التصوف بقلبه قبل عقله ، وبذوقه قبل فقهه ، وهذا ما جعله يقبل أشياء مما أخذ على القوم فى الفكر ، وفى السلوك ، دون أن يعرضها على قانون الفقه ، أو منطق العقل .

ومن أجل هذا أنكر عليه العلامة ابن الجوزى وغيره من

(١) المنقذ من الضلال ص ١٤٥ .

الناقدين قبوله لكثير من أفكار الصوفية وأعمالهم وأحوالهم ، وهي مخالفة لقانون الشرع ، منحرفة عن الكتاب والسنة الصحيحة .

وربما اعتذر أبو حامد في بعض الأحيان عن تجاوزات بعض القوم باعتذارات لا يقبلها منه الفقهاء ، كقوله بعد حكاية الصوفي الذي عرفه الناس بالإصلاح في مَحلة ، فخاف على نفسه الفتنة ، فدخل الحمام ، وسرق بعض الثياب الفاخرة ، ولبسها وخرج .. فلحقه الناس وأخذوا منه الثياب وصفعوه .. وصار يعرف بعد ذلك بـ (لص الحمام) ؟ فسر بذلك وسكنت نفسه !

قال أبو حامد : « فهكذا كانوا يروضون أنفسهم ، حتى يخلصهم الله من النظر إلى الخلق ، ثم من النظر إلى النفس ، وأرباب الأحوال ربما عالجوا أنفسهم بمالا يفتى به الفقيه ، مهما رأوا صلاح قلوبهم ، ثم يتداركون ما فرط منهم من صورة التقصير »[١].

وابن الجوزي شدد النكير على أبي حامد في حكاية هذا وأمثاله ، واستحسانه وتبريره .[٢]

---

(١) تلبيس إبليس ص ٤٥٤ ، ٣٥٥ ، وانظر الإحياء جـ ٣ ص ٢٨٨ ، ط بيروت .

(٢) يقول ابن الجوزي هنا : كيف يجوز أن يطلب صلاح القلوب بفعل =

ومع هذا لا ينكر منصف دارس للغزالي ولكتبه ، ولإحيائه خاصة أنه لم يقبل التصوف بعجره وبجره ، بل رفض فى حزم تصوف أهل الحلول والاتحاد كالحلاج وأشباهه ، ولم يقبل إلا (التصوف السني) القائم على الكتاب والسنة ، واجتهد أن يرد كل فكرة أو خلق أو سلوك ، أو حال ، مما يقول به المتصوفة ، إلى أصول إسلامية ، وأن يستدل عليها بالقرآن والحديث والأثر .

كما حاول أن يخفف من غلواء القوم فى فهمهم للتوكل والزهد ونحوهما وإن أصابه شيء من رذاذهم .

ومما يذكر له أنه نبّه على ضرورة (العلم) الشرعى . لسالك طريق الآخرة ، خلافا لما كان شائعا بين كثير من الصوفية ، أن العلم حجاب ! وقد جعل أول كتاب من كتب (الإحياء) الأربعين (كتاب العلم) ، وأول عقبة يجب أن يجتازها (العابد) هى (العلم) كما فى (منهاج العابدين) ، وأكد فى مواضع لا تحصر : أن السعادة لا تنال إلا بالعلم والعمل .

= المعاصى ؟ أو قد عدم فى الشريعة ما يصلح من قلبه حتى يستعمل ما لا يحل فيها ؟ وهذا من جنس ما تفعله الأمراء الجهلة من قطع من لا يجب قطعه ، وقتل من لا يجوز قتله ويسمونه (سياسة) ، ومضمون ذلك أن الشريعة ما تفي بالسياسة ! وكيف يجوز للمسلم أن يعرض نفسه لأن يقال عنه : سارق ! وهل يجوز أن يقصد وهن دينه عند شهداء الله فى الأرض ؟؟ إلخ .. انظر : تلبيس إبليس ص ٣٥٥ .

وقال فى رسالة (أيها الولد) : إن العلم بدون عمل جنون ، والعمل بغير علم لا يكون ! .

يضاف إلى هذا رفضه للتأويلات الباطنية التى تخرج بالنصوص الشرعية عن مقتضى ظواهرها (بغير اعتصام فيه بنقل عن صاحب الشرع ، ومن غير ضرورة تدعو إليه من دليل العقل) فإن هذا يقتضى بطلان الثقة بالألفاظ وتسقط من منفعة كلام الله وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم ، فإن ما يسبق إلى الفهم لا يوثق به ، والباطن لا ضبط له ! ومثل لذلك بقول بعضهم فى قوله تعالى : { اذهب إلى فرعون إنه طغى }: أى إشارة إلى قلبه ! وقوله : { وأن ألق عصاك } أى ما يتوكأ عليه ويعتمده مما سوى الله فينبغى أن يلقيه ! ومثله حديث «تسحروا فإن فى السحور بركة » وتأويله بأنه الاستغفار فى الأسحار !! وبهذا الطريق توصل الباطنية إلى هدم جميع الشريعة بتأويل ظواهرها .[1] .

ومما يدل على إنصافه وتدقيقه ما ذكره فى كتاب (ذم الغرور) من (ربع المهلكات) من (الإحياء) ، حيث لم

---

(١) الإحياء جـ ١/٢٧ كتاب (العلم) ، وأكده فى كتاب (آداب تلاوة القرآن) ص ٢٩ ، ومما يؤسف له أن الغزالى الذى أنكر هذا النوع من التأويل المسرف ، مال إلى شئ مثله فى تأويل الكوكب والقمر والشمس فى قصة إبراهيم بأنها حجب من نور ، بعضها أكبر من بعض ! وليس المعنى بها هذه الأجسام المضيئة الخ .. ما قال فى كتاب (ذم الغرور) من (الإحياء) جـ ٣/٤٠٦ ، ٤٠٧ . وهو ما أنكره عليه ناقدوه كابن الجوزى وابن تيمية . وهم محقون ، ويؤيدهم منطق الغزالى نفسه .

يغفـل عن التنبـيه علـى (المغترين) من المتصوفة برغم دعواهم أنهم أهل الله وأصحاب البصائر ، قال وهو يعد أصنـاف المغتريـن من الخلق : الصنـف الثالث : المتصوفة ، وما أغلب الغرور عليهم ! وهم فرق كثيرة ثم ذكرهم وكشف الستار عن غرورهم فرقة فرقة .[٢]

ومن أهم ما أبرزه الغزالى فى التصوف : أنه نقله من مجرد الـذوق والتحليـق والشطـح والتهويـل ، إلى (علم أخـلاقى عمـلى) يعالج أمراض القلوب وآفات النفوس ويزكيها بمكارم الأخلاق .

ومن نظر إلى (الإحياء) عرف أن لبابه وغايته فى نصفه الأخـير . وهـو يتكـون مـن ربعين : ربـع (المهلكـات) وربع (المنجيات) وكل من هذه وتلك عشرة كاملة وكلها تدور حول (الأخلاق) .

فهو ـ كما ذكر فى مقدمة الكتاب ـ يذكر فى (المهلكات) كل خلق مذموم ورد القرآن بإماطته وتزكية النفس عنه ، وتطهير القلب منه .

ويذكر فى (المنجيات) كل خلق محمود ، وخصلة مرغوب

(١) الإحياء جـ ٣/٤٠٤ ـ ٤٠٦ .

فيها ، من خصال المقربين والصديقين التي بها يتقرب العبد من رب العالمين ."[1].

كما أخذ عليهم من الناحية العلمية عدم دقتهم فى تعريفاتهم لأعمال القلوب ، لغلبة أحوالهم الذاتية والآنية عليهم ، ولهذا نجده يعلق على قولين متناقضين ظاهرا في حقيقة التوبة بقوله :
وكلام المتصوفة أبدا يكون قاصرا ، فإن عادة كل واحد منهم أن يخبر عن حال نفسه فقط ، ولا يهمه حال غيره ، فتختلف الأجوبة لاختلاف الأحوال ، وهذا نقصان .

بالإضافة إلى الهمة والإرادة والجد ، حيث يكون صاحبه مقصور النظر على حال نفسه ، لا يهمه أمر غيره ."[2].

ومن تتبع (الإحياء) وغيره من كتب الغزالى ، بإنصاف ، وجد أنه حاول كبح جماح القوم ، والوقوف بهم عند الحدود والحواجز الشرعية ، وضبط أقوالهم وأعمالهم ، بتقييد مطلقهـا ، وتحديـد مبهمها ، وإعطائهـا معنى مقبولا ، ونجح فى ذلك إلى حد بعيد .

ومن عرف كيف كان التصوف قبل الغزالى ، ثم كيف صار بعده ، عرف فضل الغزالى على التصوف وأهله ، وما ترك فيه

(١) من مقدمة (الإحياء) جـ ١ ص ٣ . (٢) الإحياء جـ ٤٢/٤ .

من أثر واضح ، يشهد به المتخصصون فى علم هذا الجانب من جوانب الثقافة والحياة الإسلامية .

وهذا ما اعترف به وقرره الذين عنوا بدراسة التصوف ورجاله وتاريخه ، من المسلمين ، ومن المستشرقين أيضا ، وحسبنا أن نذكر هنا ما قاله واحد من أشهر هؤلاء المستشرقين وهو الأستاذ (نيكلسون) فى دراساته عن (التصوف الإسلامى وتاريخه) التى ترجمها الدكتور أبو العلا عفيفى يقول :

« كتب صوفى فارسى من رجال القرن الخامس الهجرى ، ينعى على معاصريه تسميتهم شهواتهم « شرعا » وأوهامهم الكاذبة « علما إلهيا » ونزوات قلوبهم ورغبات نفوسهم « حبا إلهيا » وتسميتهم الزندقة «فقرا»، والشك « صفاء » وإنكار الدين « فناء النفس » ، وإهمال شرع النبى « طريقا فى التصوف »[1] .

وفى سنة ١٠٤٥[2] ميلادية ألف القشيرى رسالته المشهورة فى علم التصوف ، يذكر أهل عصره من الصوفية بما كان عليه قدماؤهم من الورع والتقوى فى القول والعمل ، وما آل إليه

---

(١) كشف المحجوب للهجويرى .
(٢) أى قبل ميلاد الغزالى بإحدى عشرة سنة ، فقد ولد سنة ٤٣٩ هـ أو ١٠٥٦م تقريبا .

التصوف من بعدهم من زوال الورع ، واشتداد الطمع ، وضياع حرمة الشريعة من القلوب ، ورفض التمييز بين الحلال والحرام ، وطرح الاحتشام ، والاستخفاف بالعبادات إلى غير ذلك .[٣].

« أما أن هذه الصيحة التى صاحها القشيرى لم تذهب سدى ، فيرجع السر فيه إلى الغزالى ، فإنه مزج التصوف بالقرآن والحديث مزجاً تاماً ، واستخرج من المجموع مادة واحدة ، وقد بقيت كتبه على الأيام لا لأنها من إملاء عقله وحده ، بل لأنها كانت نتيجة لرغبة صادقة ملحة فى تحصيل حياة روحية مطمئنة ، أى أن الغزالى حل مشكلته فى نفسه قبل أن يضع نتائجها فى كتبه .

وبعد كلام عن عزلة الغزالى ، ورحلته من الشك إلى اليقين ، واهتدائه إلى طريق الصوفية يقول مبينا موقف الغزالى :

« أما الغزالى نفسه فقد تشبث دائما بنقطتين جوهريتين لم تجرح من أجلهما عقيدته فى الإسلام : الأولى تقديسه للشرع ، والثانية وجهة نظره فى الألوهية ، فإنه أوصد الباب فى وجه مذهب وحدة الوجود بقوله ، مع أهل السنة : إن الله تعالى ذات واحدة مخالفة للحوادث ، وأنه بمقدار ما يتحقق فى النفس الإنسانية من صفات الكمال الإلهية ، يكون استعدادها لمعرفة

(٣) القشيرى ص ٢ ـ ٣ .

الله ، وأن العبد عبد ، والرب رب ، ولن يصير أحدهما الآخر البتة ، أما علمنا بالله فموقوف على إرادة الله تعالى ، وهو يعرفنا بنفسه عن طريق ما يوحى به إلى الأنبياء والأولياء[1] الذين هم من خلقه ، وبهذا المعنى الروحى العميق فهم الغزالى الألوهية ، فقرب الله من قلوب الخلق ، ولكنه قرب « الله » ـ لا ـ « الكل فى واحد »[2] .

على أن من أخطر ما يؤخذ على الغزالى ـ بالنسبة إلى التصوف ـ هو قضية (الكشف) أو (المكاشفة) التى يحصل الصوفى على علومها وأنوارها بعد الرياضة والتصفية الروحية ، وبعد الترقى فى مدارج السالكين ومنازل السائرين ، وقد صرح الغزالى أن (علم المكاشفة) مما لا يجوز أن يودع فى الكتب .

وإذا جمح به الفكر أو القلم يوما ، فذكر شيئا من الإشارات أو اللمحات مما يحوم حول هذا (الحمى المحرم) ، فسرعان ما يتذكر ويقبض عنان القلم ، حتى لا يبوح بمالا يجوز البوح به من أسرار ومكنونات (لا يحاول معبر أن يعبر عنها إلا اشتمل لفظه على خطأ صريح) كما قال .

وهذه المكاشفات وحديث الغزالي عنها قد جلبت عليه طعن

---

(١) الأولياء لا يوحى إليهم ، وإنما قد يلهمون ، وإلهامهم لم تضمن له العصمة .

(٢) فى التصوف الإسلامى وتاريخه ص ٨٣ ، ٨٤ .

الطاعنين كما رأينا من قبل كلام المازرى وغيره ، ويبدو أن ذلك بدأ فى حياته رضى الله عنه .

ففى مطلع كتابه (منهاج العابدين) - وهو آخر كتاب صنفه ولم يستمله إلا خواص أصحابه ، كما فى مقدمة الكتاب المطبوع - يذكر أنه ألف فى علم طريق الآخرة كتبا ، كإحياء علوم الدين و (القربة إلى الله) وغيرها ، اشتملت على دقائق من العلوم ، اعتاصت على أفهام العامة ، فقدحوا فيها ، وخاضوا فيما لم يحسنوه منها ، وتمثل الغزالى هنا بما يعزى إلى الإمام على زين العابدين بن الحسين رضى الله عنهما من شعر يقول فيه :

إنى لأكتم من علمى جواهره
كيلا يرى ذاك ذو جهل فيفتتنا
وقد تقدم فى هذا أبو حسن
إلى الحسين ، ووصى قبله الحسنا
يارب جوهر علم لو أبوح به
لقيل لى : أنت ممن يعبد الوثنا !
ولا ستحل رجال مسلمون دمى
يرون أقبح ما يأتونه حسنا ![1]

(١) منهاج العابدين للغزالى ص ٣ ط مصطفي الحلبى بمصر سنة ١٣٣٧ هـ .

وقد أورد التاج السبكى اعتراض الإمام المازرى على الإمام الغزالى فى قوله : إن فى علومه ما لا يسوغ أن يودع فى كتاب ، وقال : فليت شعرى : أحق هو أم باطل ؟ فإن كان باطلا ، فصدق ، وإن كان حقا ـ وهو مراده بلا شك ـ فلم لا يودع فى الكتب ؟ ألغموضه ودقته ؟ فإن كان هو ، فما المانع أن يفهمه عليه ؟ .

وقد رد السبكي على المازرى بأن للعلوم دقائق ، نهى العلماء عن الإفصاح بها خشية على ضعفاء الخلق ، وأمور أخر لا تحيط بها العبارات ، ولا يعرفها إلا أهل الذوق ، وأمور لم يأذن الله فى إظهارها لحكم تكثر عن الإحصاء .

قال : وماذا يقول المازرى فيما خرجه البخارى فى صحيحه من حديث أبى الطفيل : سمعت عليا رضى الله عنه يقول : حدثوا الناس بما يعرفون ، أتحبون أن يكذب الله ورسولهُ ؟!

وكم من مسألة نص العلماء عن عدم الإفصاح بها ، خشية على إفضاح من لا يفهمها .

وهذا إمامنا الشافعى رضى الله عنه ، يقول : إن الأجير المشترك لا يضمن ، قال الربيع : وكان لا يبوح به خوفا من أجير السوء ..

قال الربيع أيضا : وكان الشافعى ـ رضى الله عنه ـ يذهب إلى أن القاضى يقضى بعلمه وكان لا يبوح به مخافة قضاة السوء .

فقد لاح لك بهذا أنه ربما وقع السكوت عن بعض العلم ، خشية من الوقوع فى محذور .. ومثل ذلك يكثر .[1] ا . هـ . كلام التاج السبكى .

والحق أن هذا الرد أو الاعتذار من صاحب (الطبقات) لا يشفى الغليل ، وكل ما ذكره من أمثلة لا تدل على أكثر من حجز بعض المسائل عن بعض العوام وأمثالهم إذا خيف عليهم أن يسيئوا فهمها ، أو يستغلوها استغلالا سيئا ، وأن يخاطب كل قوم بلسانهم ، على قدر عقولهم .

وليس فيما ذكره ما يدل على إخفاء حقائق العلم عن العلماء أنفسهم ، فلا يباح به إلا لمن كان المشرب والمذهب ، ممن يؤتمن على السر ولا يفشيه !

والذى يبدو لى من كلام الغزالى ، ومما ذكره من الشعر المنسوب إلى زين العابدين ـ وما أظنه صحيحا عنه ـ ينبئ بأن ثمت أسرارا تناقض مقررات الشرع المعروفة ، بحيث لو أفصح

---

(١) طبقات الشافعية جـ ٦/٢٥١ ، ٢٥٢ .

بها مفصح لحكم عليه بالردة واستبيح دمه ، وهذا لا يكون إلا فيما يخالف المقطوع به فى الإسلام ، أو ما يسميه العلماء ـ ومنهم الغزالى نفسه فى بعض كتبه ـ المعلوم من الدين بالضرورة .

والله تعالى قد أنزل كتابه للناس جميعا ليعقلوه ولينذروا به وليعملوا بموجبه ، كما قال تعالى : { ليكون للعالمين نذيرا } (الفرقان:١) { هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا أنما هو إله واحد } (إبراهيم : ٥٢) { إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون } . (يوسف : ٢) { ولقد يسرنا القرآن للذكر ، فهل من مدكر } (القمر : ١٧) .

وقد يتفاوت الناس فى فهم القرآن والاستنباط منه ، ولكنه ميسر للذكر بالنسبة لهم جميعا ، ومن آتاه الله فهما أو تأويلا ـ مثل على وابن عباس رضى الله عنهما ـ فمن واجبه أن يبين للناس ما فهمه ، كل حسب طاقته .[١]

<u>*الغزالى وإنكار البعث الجسمانى :*</u>

وأخطر من هذا كله ـ مما أصاب الغزالى من الصوفية وربما من الفلسفة أيضا ـ ما اتهمه به الفيلسوف الأندلسى ابن طفيل

---

(١) ميزان العمل ـ تقديم وتحقيق د. سليمان دنيا ـ ص ١٨٢ وما بعدها ط دار المعارف بالقاهرة .

قديما ، وردده بعض أساتذة الفلسفة الإسلامية حديثا : أنه كفر الفلاسفة الإسلاميين ، لإنكارهم البعث الجسمانى ، واعتقادهم أن البعث للنفوس خاصة ، وأن كل اللذائذ والآلام فى الآخرة روحية محض . ثم يراه ينتحل هو هذا المذهب ويقره .

وتكفير الغزالى للفلاسفة بهذا ـ ضمن القضايا الثلاث المعروفة ـ أمر ثابت عن الغـزالى بيقين ، وواضـح لكـل من قرأ كتابيـه : (التهافت) و (المنقذ) .

أما انتحاله للمذهب الذى أنكره ، فيبدو هذا فى أوائل كتابه (ميزان العمل) ، حيث ذكر أن الناس فى أمر الآخرة أربع فرق :

فرقة : اعتقدت الحشر والنشر ، والجنة والنار ، كما نطق به الشارع ، وأفصح عن وصفه القرآن ، وأثبتوا اللذات الحسية التى ترجع إلى المنكوح ، والمطعوم ، والمشموم ، والملموس ، والملبوس ، والمنظور إليه .

واعترفوا بأنه ينضاف إلى ذلك أنواع من السرور ، وأصناف من اللذات التى لا يحيط بها وصف الواصفين ، فهى مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

وأن ذلك يجرى أبدا بلا انقطاع ، وأنه لا ينال إلا بالعلم

والعمل .

وهؤلاء هم المسلمون كافة ، بل المتبعون للأنبياء على الأكثر من اليهود والنصارى .

وفرقة ثانية : وهم بعض الإلهيين الإسلاميين من الفلاسفة اعترفوا بنوع من اللذة لا تخطر على قلب بشر كيفيتها ، وسموها لذة عقلية .

وأما الحسيات فأنكروا وجودها من خارج ، ولكن أثبتوها على طريق التخيل فى حالة النوم ، ولكن النوم يتكدر بالتنبه ، وذلك لا تكدر له ، بل هو على التأييد .

وفرقة ثالثة : ذهبوا إلى إنكار اللذة الحسية جملة بطريق الحقيقة والخيال وزعموا أن التخيل لا يحصل إلا بآلات جسمانية ، والموت يقطع العلاقة بين النفس والبدن ، والذى هو آلته فى التخيل وسائر الإحساسات ، ولا يعود قط إلى تدبير البدن بعد أن أطرحه ، فلا يبقى له إلا آلام ولذات ليست حسية ، ولكنها أعظم من الحسية ، فإن الإنسان فى هذا العالم أيضا ميله إلى اللذات العقلية ونفرته عن الآلام العقلية أشد ..

وإلى هذا ذهبت الصوفية ، والإلهيون من الفلاسفة من عند آخرهم ، حتى إن مشايخ الصوفية صرحوا ولم يتحاشوا ، وقالوا : من يعبد الله لطلب الجنة ، أو للحذر من النار ، فهو لئيم .

وإنما مطلب القاصدين إلى الله ، أمر أشرف من هذا ، ومن رأي مشايخهم ، وبحث عن معتقداتهم ، وتصفح كتب المصنفين منهم ، فهم هذا الاعتقاد من مجارى أحوالهم على القطع .

وفرقة رابعة : وهم جماهير من الحمقى لا يعرفون بأسمائهم ولا يعدون فى زمرة النظار ، ذهبوا إلى أن الموت عدم محض ، وأن الطاعة والمعصية لا عاقبة لهما ، ويرجع الإنسان بعد موته إلى العـدم كمـا كان قبل رجوعه .[1].

أخذ ابن طفيل قديما ، والدكتور سليمان دنيا[2] حديثا ، من كلام الغزالى هنا أن الصوفية ـ باعتراف الغزالى ـ ينكرون البعث الجسمانى صراحة ، وحيث أن الغزالى قد رضى طريقهم فهو مثلهم فى الاعتقاد ! .

والذى أراه : أن فى كلام الغزالى هنا ـ عن موقف الصوفية من قضية البعث الجسمانى والجزاء المادى فى الآخرة ـ غموضا وإجمالا ، ولا يستطيع المتأمل المنصف لكلامه أن يقطع بأنه يصفهم بإنكار الجزاء المادى الأخروى جملة .

إنما الذى يفهم منه أنهم لا يعيرون اللذات والآلام المادية

---

(١) انظر مقدمته لكتاب (ميزان العمل) ص ١٦٢ وما بعدها .

(٢) انظر : الرسول والعلم ـ المقدمة ص ٧ ط مؤسسة الرسالة .

التفاتا ، ولا يعنيهم إلا لذات الروح ، وآلام الروح ، وأن الالتفات إلى النعيم الحسى ، أو العذاب الحسى ، من شأن العوام الذين لا يشغلهم إلا هذا الغلاف الطينى الذى اسمه (الجسم) .

ولهذا يعتبرون التطلع إلى هذه الماديات انحطاطا أو لؤما ، كما نقل الغزالى عنهم : من عبد الله طلبا لجنته ، أو خوفا من ناره ، فهو لئيم ! .

فهم هنا لا يجحدون أن لله جنة يطلبها بعض الناس ، ونارا يخافها بعض الناس ، وهم فى نظرهم (اللؤماء) الذين لا يصنعون خيرا إلا لجزاء مادى ينالونه ! .

وهذا معروف مشهور عن الصوفية أنهم يقولون : لا تكن كعبد السوء ، إن خاف عمل ، ولا كأجير السوء ؛ إن لم يعط أجرا لم يعمل ! .

وفى هذا ينقلون ما يذكر عن رابعة أو غيرها :

ليس لى فى الجنان والنار حظ
أنا لا أبتغى بحبى بديلا !

وقول الصوفية : إنما اللذة لذة الروح ، وإنما العذاب عذاب

النفس ، من باب القصر الإضافى لا الحقيقى ، كما نقول : إنما الإنسـان عقل ، أو : ما العلم إلا ما نفع ، أو : إنما الفقيه من يخشى الله ، أو إنما الميت من مات قلبه ، وأمثال هذا لا يحصى .

وهذا هو الذى يقرأ فى كتبهم ويروى عنهم ، فهم لا يجحدون الأجزية المادية ، ولكنهم يحتقرونها ويحتقرون من يجعلها أكبر همه ، وغاية سعيه ، ويبالغون فى ذلك إلى حد يكادون ينكرون عبادة الله رغبا ورهبا ، وخوفا وطمعا .

وهذا يعتبر منهم خطأ وضلالً ، لأنه مناف لما فى القرآن الكريم ، ولكنه ليس كفرا يخرج صاحبه من الملة ، وقد رد عليهم الإمـام (ابن القيم) فى كتابه (مدارج السالكين) ونقلنا عنه ذلك فى كتابنا (العبادة فى الإسلام) .

وكيف يدعى الغزالى على الصوفية أنهم ينكرون المعاد الجسمانى ، والجـزاء الجسمانى ، وهو يذكر فى نفس الكتـاب (ميزان العمل) ونفس السياق أن ذلك هو اعتقاد المسلمين كافة ـ بهذا التعميم ـ بل اعتقاد أتباع الأنبياء على الأكثر ؟.

هل معنى هذا أنه يخرج الصوفية من زمرة المسلمين كافة ؟ وبالتالى يخـرج نفســه من المسلمـين ؛ لأنه رضى طـريق

الصوفيـة ، واعتبرها أصوب الطرق ؟ أم يا ترى هو يأخذ من الصوفية السيرة والأخلاق والسلوك ، ولا يأخذ عنهم الاعتقاد وبخاصة أنه لم يقل : إن عقائدهم أصح العقائد ، مع أن العمل ثمرة العقيدة ، والسلوك ترجمة عما فى القلب من تصورات ومفاهيم ؟.

إن هذه التساؤلات تدلنا على أن ما قد يفهم من ظاهر كلام الغزالى مردود : يرده السياق ، ويرده المنطق ، ويردّه صريح كلام الغزالى عن الفلاسفة وعن الصوفية فى كتبه الأخرى .

ولو افترضنا خلافاً بين كتب الغزالى ، فإن المتأخر منها يحكم على المتقدم و (المنقذ) من أواخر ما ألف ، وهو فيه مصر على تكفير الفلاسفة بقولهم فى المسائل الثلاث المعروفة .

أما القول بأن له مذهبين : أحدهما للجمهور ، والثانى للخواص ، وأنه يرى أن عقائد الفلاسـفة ليست باطـلة فى ذاتها ، وإنما الباطـل ذكـرها للعـوام ، فهـذا ما يـرده الثـابت الصـريح المقطـوع بـه من كـلامه فـى (التهافت) و (المنقذ) و (الإحياء) وغيرها . ومن ادعى غير ذلك فعليه الدليل ولا دليل .

أما إيمان الغزالى بالبعث الجسمانى ، وبالآخرة وما فيها من

نعيم حسى وروحى أعده الله للمؤمنين فى الجنة ، وما فيها من عذاب مادى ومعنوى أعده الله للكافرين فى النار ، فإن كتبه مملوءة به ، فيما لا يحصى من المواضع والاستدلال عليه من مصنفـاته من باب تحصيل الحاصل .

وليس يصح فى الأذهـــان شيء

إذا احتاج النهار إلى دليل !

الغــزالى وعـلم الحديـث :

ومن أهم ما أخذ على الغزالى تقصيره فى علم الحديث ، وإن شئنا الدقة قلنا : فى علوم الحديث ، وقد رأينا ابن الجوزى يصفه بأنه فى الحديث (حاطب ليل) أى يأخذ كل ما وجده ، دون تمحيص ولا انتقاء .

ويرجع هذا إلى أن المدرسة التى نشأ فيها الغزالى ، وتكونت فى حلقاتها شخصيته العلمية ـ مدرسة إمام الحرمين خاصة ـ كان يغلب عليها الطابع العقلى الجدلى ، وكان أهم ما يدرس فيها علوم الكلام والأصول والفقه والمنطق والجدل ، ولم تكن لها عناية كافية بالحديث وعلومه ، وقلما يسلم المرء من تأثير بيئته .

وقد عيب على شيخه إمام الحرمين بعض ما عيب عليه فى

ذلك ، ولكن الغزالى زاد على أستاذه فى هذا كثيرا ، لأن الموضوعات التى عالجها - فى التصوف والسلوك - تتسع للضعيف من الحديث أكثر مما يتسع الفقه الذى يتعلق بالأحكام ، وبيان الحلال والحرام ، ومثل ذلك علم (الأصولين) : أصول الدين ، وأصول الفقه ، وهى التى اشتهر بها شيخه .

وقد ذكرت فى كتابى (الرسول والعلم) أن الغزالى ذكر فى (كتاب العلم) من (الإحياء) نحو (٥٥) خمسة وخمسين حديثا ، منها (١٣) ثلاثة عشر فى مرتبة الصحيح أو الحسن والباقى ضعيف جدا ، رغم اشتهاره على الألسنة والأقلام[1].

« ومن الإنصاف أن نبين أن الغزالى لم يكن هو وحده الذى سقط فى أحابيل الأحاديث الواهية والموضوعة ، فقد سقط فى ذلك المتصوفة من قبله ، وهو أخذ ما فى كتبهم وأبقاه فى كتبه ، والمتصوفة معروفون بالتساهل فى ذلك ؛ لأن مجالهم (الرقائق) .

بل إن الفقهاء لم ينجوا من الوقوع فيما وقع فيه الصوفية ، فكثيرا ما ذكروا فى كتبهم أحاديث معلقة غير مسندة ولا ثابتة ، وهذا ما جعل ابن الجوزى يصف كتابه (التحقيق فى

(١) المستصفى جـ ١ ص ٢ .

تخريج التعاليق) وهذبه ابن عبدالهادى فى كتابه (تنقيح التحقيق) ، وصنف الحافظ الزيلعى كتابه (نصب الراية لأحاديث الهداية) وكم فيه من حديث يقول عنه : غريب ، أى لا سند له ولا أصل ، وهو اصطلاح خاص به .

وكتب التفسير حشيت بمالا يصح ولا يثبت من الحديث والإسرائيليات ، بل إن كتب الحديث ذاتها ـ فيما عدا الصحاح ـ فيها الكثير من المردود لدى صيارفة الحديث .

حتى كتاب (ابن ماجه) وهو سادس (الكتب الستة) المشهورة ، فيه أحاديث حكموا بوضعها !

وإنما يعرف ذلك ويميز الصحيح من السقيم ، والمقبول من المردود ، الخبراء الذين آتاهم الله المعرفة بالحديث روايته ودرايته ، ولم يكن الغزالى منهم بحكم بيئته العلمية وما غلب عليها من ثقافة .

وهذه ـ فى نظرى ـ نقطة الضعف الأولى والخطيرة عند الغزالى ، وكذلك عند كثير من الصوفية : أنه لم يتعمق فى العلوم المنقولة من التفسير الأثرى والحديث وآثار السلف ، التى هى أساس العلوم الشرعية ، وقد اعترف فى كتابه (قانون التأويل) بأن بضاعته فى علم الحديث مزجاة .

فهذا جعله يستدل بأحاديث ضعيفة أو لا أصل لها ، أو موضوعة مختلقة ، كما يغفل عن أحاديث صحيحة ، أو متفق عليها ، فى موضوعه ، كان يجب أن يذكرها . وربما لو عرفها لغيرت من مسار تفكيره .

ويبدو مما كتبه فى مقدمة كتابه الشهير فى (الأصول) ، وهو (المستصفى) أنه كان يرى أن العلوم النقلية أمرها هين . فقد ذكر فى المقدمة : أن العلوم ثلاثة ، منها : عقلى محض كالهندسة والحساب والنجوم . الخ .. وهذه لا علاقة للشرع بها .

ونقلى محض ، كالأحاديث والتفاسير ، والخطب فى أمثالها يسير ، ويستوى فى الاستقلال بها الصغير والكبير ، لأن قوة الحفظ كافية فى النقل ، وليس فيها مجال للعقل .[1].

ونظرة الغزالى هنا يشوبها القصور ، فهناك النقلة الذين يحفظون الحديث والتفسير ـ دون تمحيص ولا نقد ـ مثل الأرض التى تحفظ الماء ليستقي منها الآخرون وإن لم تنبت هى زرعا ولا كلأ ، كما فى حديث أبى موسى الأشعرى فى الصحيحين .

---

(١) طبقات الشافعية (٦/٢١٠) .

وهناك الذين يجمعون بين الرواية والدراية ، وبين الحفظ والفقه ، وبين النقل والنقد ، مثل فقهاء الحديث الذين عرف تراثنا كثيرا منهم مثل مالك والشافعى وأحمد والطبرى والخطابى وغيرهم من المتقدمين ، وفى المتأخرين مثل ابن دقيق العيد ، وابن تيميـــة وابن القيـم وابن كثير وابن حجـر وغيرهم : على تفاوت بينهم ، وهم الذين شبههم الحديث الصحيح بالأرض الطيبة التى ينزل عليها الماء فتقبله ، وتنبت الكلأ والزرع الكثير .

وقد ذكر ابن تيمية أن الغزالى فى أواخره قطع بأن كلام الفلاسفة لا يفيد علما ولا يقينا ، بل وكذلك قطع فى كلام المتكلمين . قال :

« وآخر ما اشتغل به النظر فى صحيح البخارى ومسلم ، ومات وهو مشتغل بذلك[1] » .

وحكى ذلك عنه عبد الغافر الفارسى بعد أن ذكر عودته إلى بلده (طوس) واتخاذه بجوار بيته مدرسة لطلبة العلم وخانقاه (رباطا) للصوفية ، وتوزيع أوقاته على التلاوة والذكر والتدريس ومجالسة أهل القلوب ، بحيث لا تخلو لحظة من لحظاته ولحظات من معه عن فائدة ، ثم قال :

---

(١) مجموع الفتاوى الكبرى جـ ٤٢/٥ .

وكان خاتمة أمره إقباله على حديث المصطفى صلى الله عليه وسلم ومجالسة أهله ومطالعة الصحيحين : البخارى ومسلم ، اللذين هما حجة الإسلام[1]، يعنى : بعد القرآن .

ولعله لو استقبل من أمره ما استدبر ، لبدأ بطلب الحديث والاعتصام بصحيح السنة وهدى النبوة . فإن خير الهدى هدي محمد صلى الله عليه وسلم .

وقد كان بعض شيوخ الصوفية الأولين يقول لمريده : جعلك الله صاحب حديث صوفيا ، ولا جعلك صوفيا صاحب حديث !

يريد أن من طلب الحديث أولاً ، وقف على أرض صلبة ، وجعل الحديث أصلا ، وعرض عليه مواجيد التصوف وأحواله ، ووزنها بميزان السنة الثابتة ، وبهذا يحكم السنة فى التصوف ، ولا يحكم التصوف فى السنة .

بخلاف من خاض فى التصوف أولا ، ثم طلب الحديث ، فإنه غالبا ما يحاول توجيه الحديث ليسند التصوف ، وبهذا ينقلب الأصل فرعا ، والحاكم محكوما

وقد حاول كثيرون قديما وحديثا أن يعتذروا عن استناد

---

(١) البداية والنهاية جـ ١٧٤/١٢ .

الغزالى إلى الأحاديث الضعيفة ، وخاصة فى (الإحياء) بأن الكتاب فى الرقائق والترغيب والترهيب وفضائل الأعمال ، والعلماء أجازوا رواية الضعيف فى هذا المجال .

وممن اعتذر بذلك للغزالى قديما الحافظ المفسر المؤرخ ابن كثير ، حين ترجم باختصار للغزالى فى (البداية والنهاية) فقال عن (الإحياء) :

« وهو كتاب عجيب ، يشتمل على علوم كثيرة من الشرعيات ، وممزوج بأشياء لطيفة من التصوف وأعمال القلوب ، لكن فيه أحاديث كثيرة غرائب ومنكرات وموضوعات كما يوجد فى غيره من كتب الفروع التى يستدل بها على الحلال والحرام ! ، فالكتاب الموضوع للرقائق والترغيب والترهيب أسهل أمرا من غيره »[1].

وأود أن أشير هنا إلى جملة حقائق :

١ـ أن الاستشهاد بالحديث الضعيف فى الرقائق والترغيب وفضائل الأعمال ، ليس أمرا متفقا عليه ، بل هناك من عارض فيه ، كالبخارى ومسلم وابن العربى وابن حزم وغيرهم ، ولكن جمهور العلماء أجازوه .

٢ـ أن الذين أجازوا الاستشهاد بالضعيف فى المجال المذكور

---

(١) فلسفة الأخلاق فى الإسلام ، ص ٢١٩ ـ ٢٢٤ .

اشترطوا له شروطا ثلاثة معروفة ، منها ألا يكون شديد الضعف ، وأن يندرج تحت أصل كلى ثابت بأدلة الشرع الأخرى ، وألا يعتقد بثبوته ، بل الاحتياط .

٣- أنهم نبهوا على ألا تروى الأحاديث الضعيفة بصيغة الجزم مثل : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . بل بصيغة التمريض ، مثل : روى عن رسول الله ، وحكى عنه أو ذكر عنه ، أو يقال رواه فلان بسند ضعيف . الخ ...

٤- أن (الإحياء) لم يلتزم بهذه الشروط ، ولهذا نجد فيه الأحاديث الضعيفة جدا ، والموضوعة ، وما لا أصل له ولا سند ، وهى للأسف مروية بصيغة الجزم .

ونظراً لمنزلة الغزالى عند المسلمين ، ومنزلة كتاب (الإحياء) فقد انتشرت هذه الأحاديث الواهية والموضوعة بين جماهير المسلمين .

٥- أن كثيرا من الأحاديث المذكورة فى (الإحياء) ليست لمجرد الترغيب والترهيب وترقيق القلوب ، بل كثيرا ما يستدل بها على موقف الإسلام من بعض القضايا المهمة ، كقضية الزهد ، والنظرة إلى المال والغنى والفقر ، والتوكل والأخذ بالأسباب ، وأن للقرآن باطنا وظاهرا ، وأن من العلم ما يجب أن يخفى عن الناس حتى عن العلماء .. ونحو ذلك .

٦- أن بعض الأحاديث الضعيفة يترتب على قبولها اختلال النسب بين الأعمال ، كما رتبها الشرع ، فيعظم ما حقه

التصغير ، أو يصغر ما حقه التعظيم ، أو يقدم ما حقه التأخير ، أو يؤخر ما حقه التقديم .

على أن مما ينبغي ذكره هنا أن الحافظ زين الدين العراقى ، قد خدم الكتاب خدمة جليلة بتخريجه الموجز لأحاديثه المطبوع معه فى حاشيته ، والمسمى (المغني عن حمل الأسفار ، بتخريج ما فى الإحياء من الأحاديث والأخبار) ، فيجب على كل قارئ للإحياء مراجعة تخريج العراقى ، ليعرف منه درجة الحديث ، وإن كان فيه ما يتعقب ، ولكنه مهم ونافع على كل حال .

وكم أتمنى أن يختصر من الكتاب ـ أعنى « الإحياء » ـ (منتقى) يبقى على روحه وحرارته ، كما يبقى على فوائده العلمية والتربوية ـ وهى كثيرة وفيرة ـ ويحذف التجاوزات والمبالغات ، والأحاديث الضعيفة ـ أو الشديدة الضعف على الأقل وبهذا نقدم للثقافة الإسلامية خدمة جليلة .

الناقدون للغزالى من المعاصرين :

ليس عجيبا أن نجد من المعاصرين من ينقد الغزالى ، وقد نقده من قبل أئمة سابقون .

والناقدون للغزالى ليسوا فئة واحدة ، بل نراهم مدارس شتى

وطرائق قددا .

فمنهم من ينقده ، لأشعريته ومذهبه فى تأويل الصفات ونحوها ، وما بقى فيه من رواسب التأثر بالفلسفة .

ومنهم من ينقده ، لصوفيته ، ومنهجه ، فى نصرة التصوف وتبنّيه .

ومنهم من ينقده لدعوته إلى إهمال الحياة المادية ، وتقدم المجتمع ، استغراقا فى طلب السعادة الشخصية . وهو أثر من آثار تصوفه .

ومنهم من ينقده ، لاستفادته من أفكار الآخرين ، دون أن ينسبها إليهم .

ومنهم من ينقده ، لأنه رأى أفكاره يناقض بعضها بعضا ، وأنه يبنى فى كتاب ما يهدمه فى آخر .

ومنهم من ينقده ، لسلبيته أمام الأحداث الكبار المهددة لحياة الأمة من حوله ، إلى غير ذلك من الانتقادات التى نجد أكثرها - عند التأمل - ترجع إلى انتقادات السابقين نفسها ، وإن لبست لبوس العصر .

هذا إلى انتقادات (العلمانيين) الذين يكرهون الغزالى ، لأنهم يكرهون الدين نفسه . وسنحاول أن نذكر هنا أبرز المآخذ الأساسية التى عابها أهل عصرنا على الإمام الغزالي ، وسنقتصر منها على ما له طابع عام ، دون ما له انتساب خاص إلى تيار معين ، كالتيار المعادى للأشعرية أو الصوفية بوجه عام .

الغـزالى والمصلحة العامـة للمجتمع :

مما عابه المعاصرون على الغزالى : إغفال المصلحة العامة للمجتمع المسلم ، وللأمة الإسلامية ، . وفى هذا الشأن وجه أستاذنا الدكتور/ محمد يوسف موسى ـ رحمه الله ـ إلى الغزالى ، نقـدا عنيفا فى كتابه (فلسفة الأخلاق فى الإسلام) ، فنراه بعد أن فصل القول فى مذهبه الأخلاقى ، والفلسفة التى يقوم عليها ، والمصادر التى استقي منها ، وبين رأيه فى الفضيلة والسعادة ، والطريق إليها ، وانتهائه إلى تفضيل حياة الزهد ، والخمول والجوع وترك السعى ، واعتبار ذلك المثل الأعلى ـ يقول :

(هل وضع فيلسوفنا ـ وهو يكتب مذهبه فى الأخلاق ـ الصالح العام للمسلمين كأمة لها حظ فى الحياة ، ومكانة يجب أن تحافظ عليها ، وغاية جليلة تعمل على الوصول إليها ؟ ..) .

وبعد أن يبين موقف الإسلام الذى يجمع بين الدنيا والآخرة ، ويمزج بين الروح والمادة ، وينكر تحريم زينة الله والطيبات من الرزق ، ويأمر بالمشي فى مناكب الأرض التى جعلها الله لنا ذلولا ، كما يأمرنا أن نعد لأعدائنا ما استطعنا من قوة .... فهو لا يغلق ملكوت السموات فى وجوه الأغنياء ، كما فعل

عيسى عليه السلام ولم يقل النبى صلى الله عليه وسلم ـ لأحد من أتباعه : بع مالك واتبعنى ، كما قال المسيح عليه السلام بل قال لسعد : « إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس » .

بعد هذا يعود الدكتور موسى إلى سؤاله الأصلى .

وقبل أن يجيب الدكتور يوسف موسى على تساؤله ، يذكر رأى الغزالى فى الزهد والتوكل وأن من ملك لنفسه أكثر من قميص وسروال ومنديل ، أو ابتغى لنفسه أكثر من حجرة ، فقد خرج من صفوف الزاهدين !

وبعد أن حكى عن جوع السلف ، ممن كان يطوى بطنه سبعة أيام ، ومن يواصل إلى أربعين ، وأن سهلا التُستَرى كان يفضل الصلاة قاعدا من الجوع ، على الصلاة قائما مع الشبع !

ثم ما ذكره عن التوكل ، وأن أعلى مقاماته : مقام الخواص ونظرائه ممن كان يدور فى البوادى بغير زاد !

ثم يليه مقام من يلزم البيت أو المسجد ، انتظارا لما يبعثه الله من رزق !

بعد هذا يقول الدكتور رحمه الله :

« ونعتقد أنه واضح بعد هذا ، أن الغزالى لم يكن ـ وهو

يكتب فى مذهبه الأخلاقى ـ يعنيه الصالح العام ، كما كان يعنيه الصالح الخاص للمتصوفين ، وأن مذهبه ليس مذهبا يقوم عليه الاجتماع ، وتسعد به الأمة ، فإنه جعل الغاية من الأخلاق « السعادة » وحددها وعين وسائلها بما يجعلها (السعادة الشخصية) لا العامة ، فكان مذهبه بذلك (مذهبا فرديا) لا اجتماعيا .

وقد كان حَرِيًّا به ـ وهو من الذين وَصلُوا لِفَهْم الدين وأسراره ـ ان يجعل منَ الدين ، الذى أشرنا من قبلَ إلى بعض مزاياه ونظراته للحياة ، عاملا اجتماعيا يأخذ منه مذهبا للأخلاق الاجتماعية ، يتميز بالنبل والصلاحية لبناء الأمم وسعادتها ، كما فعل الشيخ محمد عبده فى (رسالة التوحيد) ، لأن الإسلام جاء لسعادة المجتمع لا لسعادة فريق دون فريق .

« إن هؤلاء المتصوفة ومن إليهم من الذين يسعون وراء سعادتهم الخاصة قوم أنانيون ، بل قوم جمعوا إلى الأنانية صفة أخرى ، أنهم طلوها بطلاء من الدين يخدع الجهال ، فيحسبون أنهم صفوة خلق الله .

وإن أسعد أيام أمم الغرب التى تتقاتل فى سبيل استعمار الشرق ، وخصوم الإسلام وأعدائه الذين يتربصون به الدوائر ، لهو اليوم الذى يرون فيه المسلمين آخذين ـ لا قدر الله تعالى ـ

بمذهب الغزالى ، فيجعلون الغاية التى عَيَّنَ غَايتهم ، والمنهاج الذى رسم منهاجهم ، فيصيرونَ عدما ، أو كالعدم فى هذه الحياة التى لا ترحم الضعيف ، والتى تذكرنا بقول الشاعر :

تعدو الذئاب على من لا كلاب له

وتتقى صولة المستأسد العادى

« على أنه من الحق للغزالى أن أشير إلى دفاع الأستاذ الكبير يوسف كرم في نقده عنه في هذه المسألة ، مسألة الغاية القصوى للإنسان ، بأنه مادامت آخرة الإنسان روحية ، فالدنيا تعتبر عدما أوكالعدم ، والأمة الزاهدة هى الرابحة السعيدة ، وأنه فى هذا الدفاع يتمنى لو وجدت أمة تجمع على التزام حدود الله ، وتذهب فى سبيل الكمال ، إلى حد إيثار العدالة على القوة ، والإحسان على العدالة ، فبهذا يكون أبناؤها ملائكة تمشى على الأرض ، ويصلحون الأرض ومن عليها [1] ! .

وهناك دفاع آخر قدمه الأستاذ طه عبد الباقى سرور فى كتيبه عن (الغزالى)[1].

إذ رأى أن الغزالى لا يدعو الناس جميعا لمثل هذا الزهد ، أو لمثل ذاك التوكل ، إنما يدعو إليه فئة خاصة من الناس ،

(١) ظهر فى سلسلة (اقرأ) التى تصدرها دار المعارف بالقاهرة .

يكونون فيهم كالشامة ، يهونون عليهم أمر الدنيا وأعراضها وزخارفها ، وإن لم يطلب من الجميع أن يسعوا سعيها ، وإلا خربت الدنيا ، وهى مزرعة الآخرة ، ولله حكمة فى بقائها وعمارتها .

ونقل الأستاذ سرور من كلام الغزالى فى عدة مواطن من (الإحياء) ما يدل على هذه الفكرة ، ومما يؤيد هذه الفكرة اعتبار الغزالى الحرف والصناعات والعلوم الدنيوية مثل الطب والحساب وكل ما به قوام الحياة من فروض الكفايات التى تأثم الأمة بالتفريط فيها .

ومهما يكن من دفاع هذا وذاك عن الإمام الغزالى ، فالذى يوحى به مجموع كتب الغزالى الصوفية وما فيها من نزعة شديدة إلى الزهد وإن لم يكن بصورة مباشرة أن الإنسان المثالى عنده ـ وعند المتصوفة بشكل عام ـ ليس هو الإنسان الذى عرفه الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ مما فهموه من القرآن والسنة والسيرة ـ جامعاً بين الدنيا والآخرة ، بين حظ نفسه وحق نفسه وحق ربه وبين ترقية روحه وخدمة مجتمعه ، وبين التمتع بالطيبات والقيام بشكر الله تعالى ، بين العبادة لله ، والضرب فى الأرض ، والانتشار فيها ، والمشى فى مناكبها ابتغاء فضل الله ، يعمل لدنياه كأنما يعيش أبدا ، ويعمل لآخرته كأنه يموت غدا .

فعلى قارئ الغزالى أن يستفيد مما لديه من شحنة روحية عالية ، تلين بها القلوب القاسية ، وتجعل الآخرة دائما حاضرة ، وهذا ما يحتاج إليه الناس فى عصر المادية الغالية ، مع الحذر من المبالغات التي تبعد بالمسلم عن منهج الوسطية المستقيم .

الغزالى وانتهاب أفكار الآخرين :

وعابوا عليه أنه يأخذ أفكار غيره من العلماء ولا ينسبها إليهم ، أو على حد تعبير أستاذنا د. يوسف موسى[1] : ينتهبها ! ، ويحكيها كأنها أفكاره وآراؤه دون أن يعزوها إلى أصحابها .

هذا مع أنه رحمه الله عاب ذلك أشد العيب فى كتابه (الإحياء) واعتبره لونا من (السرقة) المموهة بطلاء كاذب ، وذلك فى كتاب (ذم الغرور) من ربع المهلكات ، عند حديثه عن المغترين من فرق أهل العلم ، فجعل منهم من « لعله يحكى من الكلام المزيف ما يريد تزييفه فيعزيه إلى قائله ، وما يستحسنه فلعله لا يعزيه إليه ، ليظن أنّه من كلامه ، فينقله بعينه كالسارق له ؟ أو يغيره أدنى تغيير ، كالذى يسرق قميصا فيتخذه قباء ، حتى لا يعرف أنه

(١) فى كتابه (فلسفة الأخلاق فى الإسلام) .

مسروق ! . »[1]

وقد لمست بنفسى كثيرا من ذلك فى (الإحياء) حيث ينقل من (الذريعة إلى مكارم الشريعة) للإمام الراغب الأصفهانى كثيرا من الأفكار ، ولا يعزوها إلى مصدرها ومثل ذلك من (قوت القلوب) لأبى طالب المكى ، ومن (الرعاية) للحارث المحاسبى ، الذى قال عنه العلامة الشيخ محمد زاهد الكوثرى : إن الغزالى تبطنه فى (إحيائه)[2]، وهذا أمر يلمسه كل من قرأ الكتابين وبخاصة ربع (المهلكات) من الإحياء ، فهل كان ذلك غفلة منه ، أم لأنه قرأ هذه الأفكار ، وتمثلها ولم يعد يذكر من أصحابها ، أم كان طابع العصر يسمح بذلك ولا يحاسب عليه ، ويعتبر هذه الأفكار ملكا شائعا ؟

على أية حال ، لقد كان الرجل فى هضمه للثقافات والمعارف المتنوعة المصادر ، المتعددة الألوان ، أشبه بالنحلة التى تأكل - بإيحاء ربها - من كل الثمرات ، وتتغذى من مختلف الأزهار ، فى مختلف الزروع والأشجار ، سالكة سبل ربها

---

(١) الإحياء جـ ٣ ص ٢٧٥ .

(٢) نقله الشيخ عبد الفتاح أبو غده فى مقدمة تحقيقه لـ (رسالة المسترشدين) للمحاسبى ، ولكن مما يذكر للغزالى أنه اعترف بأخذه عنه فى (المنقذ) وقال عنه فى الإحياء (جـ ٢٦٤/٣) : المحاسبى حبر الأمة فى علم المعاملة ، وله السبق على جميع الباحثين عن عيوب النفس ، وآفات الأعمال وأغوار العبادات .

ذللا ، ليخرج بعد ذلك من بطنها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس .

وكذلك كان الغزالى ، إن كل ما قرأه وحصله فى مراحل عمره المختلفة ، أصبح بمثابة اللبنات ومواد البناء ، التى استخدمها فى تكوين البناء الفكرى المحكم الذى صممه وأقامه ، بفكره ومعرفته .

الغزالى وتناقض الأفكار :

وعابوا على الغزالى كذلك ما يبدو من اضطراب وتناقض فى أفكاره وتعارض فى آرائه ، فهو ينفى فى كتاب ما يثبته فى آخر ، ويحل فى موضع ويربط فى آخر .

وهذا فى الواقع ليس نقدا جديدا موجها إلى الغزالى ، بل هذا مما عابه عليه القدماء ، عابه بذلك ابن طفيل ، وابن رشد ، وابن تيمية ، وغيرهم .

يذكر ابن طفيل أنه كفر الفلاسفة فى (التهافت) لإنكارهم حشر الأجساد وإثباتهم الثواب والعقاب للنفوس خاصة ، ثم يقول فى كتاب (الميزان) : إن هذا الاعتقاد هو اعتقاد شيوخ الصوفية على القطع ، ثم قال فى (المنقذ) إن اعتقاده هو

اعتقاد الصوفية[1] .

وقد أدى هذا ببعض دارسى الغزالى إلى القول بأن له مذهبين :
مذهب للعوام ، وهو ما ضمنه بعض كتبه مثل (التهافت) .

ومذهب للخواص ، يتبع فيه الفلاسفة ، كما فى (معارج القدس) وغيرها ، ذهب إلى ذلك الدكتور سليمان دنيا فى كتابه « الحقيقة فى نظر الغزالى » .

وأنا أعيذ أبا حامد أن يكون ذا وجهين ـ وأن يكفر الفلاسفة فى الظاهر ويتبعهم فى الباطن .

ولو جاز ذلك منه فى أوائل حياته ، أيام طلب الظهور والصيت ، لم يجز أبدا بعد أن جعل الدنيا وأهلها وراء ظهره ، وأقبل بكنه همته على الله سبحانه .

وقد بينت أن كلامه عن اعتقاد الصوفية فى الجزاء الأخروى ، لا يفهم منه ـ على القطع ـ ما فهمه ابن طفيل .

---

(١) حى بن يقظان لابن طفيل ص ٦٣ ، ط . دار المعارف .

وغاية ما يمكن قوله هنا : أن الرجل كان ذا نفس قلقة ، وعقل ثائر ، وكان فكره دائم الحركة ، فكثر انتقاله من رأى إلى آخر : حتى ثبت على ما هو عليه .

وقد رأينا أن ما قاله عن الفلاسفة فى (التهافت) يؤكده ما قاله عنهم فى (المنقذ) وهو من أواخر مصنفاته ، كما أكد ذلك فى (الإحياء) وفى (فيصل التفرقة) .

ثم إن هناك كتبا تنسب إليه تتضمن آراء مناقضة لما قرره فى كتبه المشهورة وتلك الكتب لم يثبت صحة نسبتها إليه .

من ذلك كتاب (المضنون به على غير أهله) وقد أنكر العلامة ابن الصلاح نسبته إليه ، وقال : معاذ الله أن يكون له ، وبين سبب كونه مختلقا موضوعا عليه .

قال العلامة ابن السبكى : والأمر كما قال : وقد اشتمل (المضنون) على التصريح بقدم العالم ونفى العلم القديم بالجزئيات ، ونفى الصفات ، وكل واحدة من هذه يكفر الغزالي قائلها ، هو وأهل السنة أجمعون ، فكيف يتصور أنه يقولها ؟![1]

وكذلك قال الأسنوى فى (طبقاته) :

(١) طبقات الشافعية جـ ٦ ص ٢٥٧ .

وينسب إليه تصنيفان ليسا له ـ بل وضعا عليه ، وهما : (السر المكتوم) ، و (المضنون به على غير أهله[1]) .

وقال ابن رشد : لعله لم يؤلفه[2] .

ويبدو أن هناك كتبا دس فيها على الغزالى ما لم يقله ، دسها فيها أصحاب الأهواء ، وأتباع المذاهب المنحرفة ، استغلالا لاسم الغزالى وشهرته ، ليروجوا عن طريق كتبه باطلهم ، أو ليشوشوا به على الغزالى ويشنعوا عليه .

ويظهر أن هذا الدس بدأ فى حياة الغزالى كيدا له ، كما حكى هو نفسه فى إحدى رسائله الفارسية ، وذلك بعد رجوعه إلي التدريس بالنظامية ، والتفاف الطلبة حوله ، ومجيئهم إليه من كل صوب ، وحسد الحاسدين له ، وآفة العلماء الحسد ، وخصوصا من المتعاصرين ، وبالأخص إذا اختلفت مذاهبهم ومشاربهم .

فلنستمع إليه يحدثنا عن ذلك فيقول :

« لما استجيبت الدعوة واستمر عمل التدريس ناشطا ، وأخذ طلبة العلم من أطراف العالم يفدون ، هاج حسد الحساد ،

(١) نقله ابن العماد الحنبلى فى شذراته جـ ٤ ص ١١ .
(٢) عبده الشمالي دراسات في الفلسفة الإسلامية ص ٥١٣ .

ولم يجدوا أى طعن مقبول ، غير أنهم لبسوا الحق بالباطل ، وغيروا كلمات من كتاب : (المنقذ من الضلال) وكتاب (مشكاة الأنوار [1]) وأدخلوا فيها كلمات كفر ، وأرسلوا إليّ حتى أكتب على ظهرهما (خط الإجازة) ، ولكن الله سبحانه وتعالي قد ألهمنى بفضله وكرمه ، حتى طالعت ووقفت على تلبيسهم ، واطلع رئيس خراسان على هذه الحالة ، وأمر بحبس ذلك المزور ، وأخيرا نفاه عن نيسابور ، فذهب إلى المعسكر عند ملك الإسلام ، وأطال لسان الطعن ، وقد عجز عنه ، ثم أخذ تعليقا صنفته فى أيام الصغر مكتوبا على ظهره (المنخول من تعليق الأصول) وقد زاد عليه جماعة بحكم الحسد من قبل ثلاثين سنة بكلمات تطعن فى الإمام أبى حنيفة »[2] .

(١) نشر هذا الكتاب الدكتور أبو العلا عفيفى ، وأشار فى مقدمة نشره إلى صحة نسبة الكتاب إلى الغزالى ، ولكن الدكتور محمد على أبو ريان يذكر : أن المقارنة النصية المباشرة بين (المشكاة) و (إحياء علوم الدين) فى المواضع المتناظرة ، تكشف عن عدم صحة نسبة المشكاة للغزالي ، بل إن الدراسة (الفيلولوجية) النقدية للمشكاة قد أثبتت هذا الرأى (انظر : تاريخ الفكر الفلسفى فى الإسلام ، هامش ص ٤٩٢ نشر دار المعرفة الجامعية الإسكندرية ١٩٨٣) .

ولكن كلام الغزالي هنا يثبت صحة النسبة ، فلعل الكتاب دست فيه - بعد الغزالى - مقاطع من غير كلامه !

(٢) فضائل الأنام من رسائل حجة الإسلام ص (٤٥) نقلها من الفارسية إلى العربية الدكتور/ نور الدين آل علي - نقلا عن الدراسة التى قدم بها الزميل الدكتور على محيى الدين القره داغى تحقيقه لكتاب (الوسيط) للغزالى جـ ١ ص ١٦٣ .

فلا يؤمن أن يكون بعض الكتب قد دس فيها - بعد وفاته - عبارات تلزم الرجل ما لم يلتزم ، وبخاصة الكتب غير المشهورة ، والله أعلم بحقيقة الحال !

الغزالى والغزو الصليبى للشرق الإسلامى :

وعابوا على الغزالى كذلك أن عصره شهد كوارث ضخمة في حياة الأمة الإسلامية ، لم يشر الغزالى إليها ، ولا أظهر اهتماما بها ، مثل غزو أهل الكفر للمسلمين فى عقر دارهم ، واحتلال الصليبيين لعدد من بلاد الإسلام لاسيما بيت المقدس ، الذى دخلوه غازين ، وأسالوا فيه الدماء أنهارا ، وقتلوا من أهله نحو ستين ألفا ، وتفكك الأمة أمام هذه الغارات الوحشية .

فما لنا لم نسمع صوت الغزالى هنا ، وهو صاحب الكلمة المسموعة ، والصيت المدوى ، والبيان المؤثر ، والحجة البالغة ؟ ما له لا يتحدث عن الجهاد ؟ وما له لا يحرك الجماهير كما فعل من بعده شيخ الإسلام ابن تيمية ؟ ما سر هذه السلبية ؟.

والحق أن هذا موقف محير من أبى حامد - رضى الله عنه - ومثله لا يجهل ما يجب أن يقال ، وما يجب أن يعمل فى زمن الإغارة على أهل الإسلام ، وقد سجل حكم الجهاد فى مثل هذه الحالة ، وأنه فرض عين فى كتبه الفقهية ، فما له

سكت هنا ، هل غلب الغزالى الصوفى على الغزالى الفقيه ؟

ربما يقال :

إن هذه الأحداث الكبار إنما برزت وتفاقمت فى العالم الإسلامى فى نفس الوقت الذى اتجه فيه الغزالي إلى حياة العزلة والتصوف سنة ٤٨٨ هـ وهجر الدنيا بما فيها من صراع البقاء أو صراع الفناء ، فكان محور تفكيره حينذاك إنقاذ نفسه من النار ونقلها من (المهلكات) إلى (المنجيات) .

فقد غزا الصليبيون أنطاكية سنة ٤٩١ هـ ، ثم معرة النعمان فى الشهر الأخير من تلك السنة حتى قالوا : إنهم قتلوا فيها مائة ألف ، ثم اجتاحوا البلاد كلها يقتلون ويدمرون ، واقتحموا القدس سنة ٤٩٥ هـ وذبحوا من ذبحوا مما يذكره التاريخ ولا ينساه ، وكان الغزالي لا يزال فى عزلته ، إذ لم يفارقها إلا فى سنة ٤٩٩ هـ .

ولكنه بعد ترك العزلة والعودة إلى حياة الإفادة ، والتدريس والدعوة ، لم يبد منه ما يدل على عنايته بهذا الأمر ، الذى يتعلق بمصير الأمة ، وسيادتها فى أرضها ، مما جعل بعض الباحثين يقول : إن الصوفية ـ والغزالي منهم ـ وقفوا من الغارات الصليبية موقفا سلبيا ، لاعتقادهم أنها كانت عقابا

إلهيا للمسلمين على معاصيهم[1] !

ولعل عذر الإمام الجليل أن شغله الشاغل كان الإصلاح من الداخل أولا ، وأن الفساد الداخلى هو الذى يمهد للغزو الخارجى ، كما تدل على ذلك أوائل سورة الإسراء فإن بنى إسرائيل كلما فسدوا وأفسدوا فى الأرض ، سلط عليهم عدوهم ، وكلما أحسنوا وأصلحوا ردت لهم الكرة عليهم .

لقد وجه أكبر همه إلى إصلاح الفرد ، الذى هو نواة المجتمع ، وإصلاح الفرد إنما يكون بإصلاح قلبه وفكره ، وبذلك يصلح عمله وسلوكه ، وتصلح حياته كلها ، وهذا هو أساس التغيير الاجتماعى ، وهو ما أرشد إليه القرآن :، { إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم } (سورة الرعد : ١١) .

ويدخل فى ذلك إصلاح الحكام بحسن توجيههم والنصيحة لهم ، والله أعلم بحقيقة عذره .

الغـزالي ومسئولية التخلف العلمي والحضاري للأمة :

ولقد ذهب بعض المستشرقين ، وتبعهم بعض المعاصرين من

(١) مقال د. عمر فروخ فى مهرجان الغزالى ، نقلا عن (مقارنة بين الغزالى وابن تيمية للدكتور محمد رشاد سالم ، نشر دار القلم بالكويت) .

العرب إلي أن الغزالى يحمل وحده تبعة هدم الفلسفة ، والتفكير العقلى الحر ، وانتصار المدرسة التقليدية علي المدرسة العقلية ، بل حمله ـ تبعا لذلك ـ مسئولية انهيار صرح العلوم والحضارة الإسلامية برمتها !!

وآخر ما قرأته فى ذلك : كتاب صدر فى سلسلة (عالم المعرفة) بدولة الكويت الشقيقة عن (العرب وتحديات التكنولوجيا) وفيه يحمِّل المؤلف (انطونيوس كرم) ومن نقل عنهم من المعاصرين الغزالى ، والمدرسة التى يمثلها ، نتيجة تخلف الأمة ، وسقوط حضارتها !! وهذه لا ريب دعاوٍ عريضة لا يصعب الرد عليها لأى دارس للحضارة الإسلامية وتياراتها ومدارسها ، وردنا على هذه الدعوى من وجوه :

(١) : إن فلسفة يستطيع فرد واحد من الناس ـ مهما علا كعبه فى المقدرة العقلية والعلمية ـ أن يأتى على بنيانها من القواعد بكتاب يؤلفه أو كتب ـ لهى فلسفة جديرة أن تختفى من عالم الفكر ، بل لا تستحق أن تسمى فلسفة .

إن الحقائق أعمق جذورا فى الوجود من أن تقتلع بهذه السهولة التى يتصورون أو يصورون ، إنما الذى يقتلع وينهار بهذه السهولة هو الأباطيل التى قد تبدو في صورة الحقائق ، أو الأوهام التى تلبس ثوب اليقينيات ، وهى من اليقين عارية ، وصدق الله إذ يقول " { فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض } (سورة الرعد : ١٧) .

(٢) : إن الفلسـفة لم تمت تماما بحمـلة الغزالى عليهـا ، بـل خفـت صوتها ، وتقلص سلطانها ، وفقدت ما كان لها من هيل وهيلمان ، وهذا ما كان يريده الغزالى ، ولكن هذا لم يمنع من ظهور فلاسفة كبار ، وخصوصا فى المغرب من أمثال ابن باجه وابن طفيل وابن رشد ، وفى هذا يقول (دى بور) الهولندى :

« كثيرا ما يقال : إن الغزالى قضى على الفلسفة فى الشرق ولم تقم لها بعده قائمة ، ولكن هـذا زعم خاطـئ ، لا يدل على علم بالتـاريخ ، ولا فهم لحقائق الأمور ، فقد بلغ عدد أساتذة الفلسفة وطلابها بعد عصر الغزالي مئات بل ألوفا »[١].

وحسـبنا أن أشهـر فلاسـفة الإسـلام على الإطـلاق ، وأكـبر شـارح لأرسطو ، والذى يعتبره عدد من مؤرخى الفكر قمة التفكير الإسلامي وهو أبو الوليد ابن رشد (ت ٥٩٥ هـ) ظهر بعد الغزالى ، بل كان موقف الغزالى أكبر حافز له على الإنتاج ، والرد والشرح ، كما أشار إلى ذلك الدكتور إبراهيم مدكور .

(٣) : إن الغزالى لم يهاجم الفلسفة من حيث هى تفكير عقلى حر ، يبحث عن حقائق الأشياء ، مستقلا لا مقلدا ،

(١) تاريخ الفلسفة فى الإسلام ـ ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريده ص ٣٥٧ ـ الطبعة الخامسة دار النهضة العربية ـ بيروت .

وأصيلا لا تابعا ، إنما هاجم الفلسفة التى انتسبت إلى الإسلام ، وكتبت بلغة العرب ، وهى لا تمثل الإسلام ، ولا العرب فى حقيقتها ، وما هى إلا مركب غير متجانس من الفلسفة المشائية الأرسطية مخلوطة بالأفلاطونية الحديثة ، يراد إخضاع التعاليم الدينية الإسلامية لها وهى متناقضة فى نفسها ، وغير مؤسسة على علم يقينى .

والذى صنعه الغزالى إنما هو نقض التبعية والعبودية الفكرية لهذه الفلسفة الغازية ، ووضعها تحت مجهر النقد ، وعلى مشرحة التحليل ، فالإنصاف يقول : إن الغزالى قد أعاد إلى الإنسان المسلم الثقة بنفسه ليفكر برأسه لنفسه ، بدل أن يفكر له أرسطو أو أفلوطين أو غيرهما .

والغزالى حين أظهر عجز الفلسفة ، وتهافت الفلاسفة ، لم يقم ذلك على أساس دينى ، بل على أساس عقلى محض ، فهو يقارع الدليل بالدليل ، ويدحض الشبهة بالحجة ، ويهدم الظن باليقين ، يقاوم المنطق بمنطق أقوى ، لا تهوله العبارات الفخمة ، ولا الأسماء الطنانة ، فهو حارب الفلسفة بالفلسفة ، وهو فى نقضه للفلسفة فيلسوف كبير ، وإن لم يعتبر نفسه كذلك .

(٤) : إن الغزالى لم يهاجم كل شعب الفلسفة (فقد استثنى

الرياضيات والطبيعيات والخلقيات والسياسيات منها) ، إنما هاجم الفلسفة الميتافيزيقية ، أو بتعبير أستاذنا المرحوم الدكتور/ محمد البهى : (الجانب الإلهى) من الفكر الفلسفى وهو الجانب الذى يعجز العقل أن يقول فيه كلمة فاصلة ، لأنه فوق قدرته ، وفوقه اختصاصه ، وكل ما يملكه العقل هنا قياس الشاهد على الغائب ، أو المحدود على غير المحدود ، أو المخلوق على الخالق ، وهو قياس ـ بالمنطق العقلى نفسه ـ مرفوض ، لأنه قياس مع الفارق ، وأى فارق أكبر مما بين المخلوق والخالق ؟!

وقد شارك الغزالى فى هذا كثير من كبار الفلسفة فى العصر الحديث ، مثل (كانت) الذى شبه عبارات الفلسفة (الميتافيزيقية) بأنها (ورق نقد بدون ضمان) ، كما نقل عنه الدكتور/ البهى فى كتابه القيم (الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى) .

ومثل فيلسوف المدرسة الوضعية " أوجست كوفت " الذى يعتبره الغربيون (أبا علم الاجتماع) الذى يعتبر (الميتافيزيقية) مرحلة انتهت بظهور الاتجاه العلمى الوضعى التجريبى .

وقد رأينا مفكرا عربيا معاصرا مثل د. زكى نجيب محمود ، يشن حملة على التفكير التجريدى فيما وراء المادة ، ويسميه (خرافة الميتافيزيقا) .

فليس الغزالى بدعا فى الأولين ولا الآخرين ، إذا هو هاجم

اللون من الفلسفة التى لا تنهض بانتشارها دنيا ، ولا يستقيم عليها دين !

(٥) : إن نقد الغزالى للفلسفة ، وحملته عليها وانتصاره للدين ولعقائد الإسلام ، لا يعنى أنه أصبح خصما للعقل ، أو أنه أدار ظهره للفكر الحر .. فهذا إن دل على شئ فإنما يدل على سوء فهم لدين الإسلام ولموقف الغزالى .

فأما سوء فهمهم للإسلام ، فلتوهمهم أن الدين - كل دين - لا يرحب بإعمال العقل ، ويقيسون الإسلام فى ذلك على النصرانية التى شعارها : اعتقد وأنت أعمى ! والتى تؤمن بالتعارض بين العقل والدين ، حتى قال القديس الفيلسوف أوغسطين : أومن بهذا لأنه محال ! على حين ينكر الإسلام التقليد ، ويدعو إلى النظر ، ويعتبر التفكر عبادة والعلم فريضة ، ويرفض اتباع الظنون والأهواء ، ويقول لأصحاب العقائد المختلفة { قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين } (البقرة الآية ١١١ ، النمل الآية ٦٤) : { قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ؟ إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون } (الأنعام الآية ١٤٨) .

وأما سوء فهمهم للغزالى فإن الرجل لم يتنكر للعقل ولا للنظر ، كيف وهو الذى أعلن أن الشك هو أول مراتب اليقين ، وأن مطلوبه الذى يسعى وراءه هو العلم اليقينى ، وقد حدده

بأنه (الذى ينكشف فيه المعلوم انكشافا لا يبقى معه ريب ولا يقارنه إمكان الغلط والوهم ، ولا يتسع القلب لتقدير ذلك ، بل الأمان من الخطأ ينبغى أن يكون مقارنا لليقين ، مقارنة لو تحدى بإظهار بطلانه من يقلب الحجر ذهبا ، والعصا ثعبانا ، لم يورث ذلك شكا وإنكارا ، قال : إن كل علم ممَّا لا أعلمه على هذا الوجه ، ولا اتيقنه هذا النوع من اليَقين ، فهو علم لا ثقة به ولا أمان معه ، وكل علم لا أمان معه فليس بعلم يقينى[1]. ا هـ (المنقذ من الضلال .) .

وقال فى أواخر (الميزان) : من لم يشك لم ينظر ، ومن لم ينظر لم يبصر ، ومن لم يبصر بقى فى العمى والضلال[2]!

كما ذكر فى غير موضع من كتبه أن العقل لا يغنى عن النقل ، وقد يعبر عنه بالسمع أو الشرع ، والنقل لا يغنى عن العقل . يقول فى كتابه (ميزان العمل) .

ويرى أن العقل كالأس ، والشرع كالبناء ، ولن يغنى أس ما لم يكن بناء ، ولن يثبت بناء ما لم يكن أس .

يقول فى كتابه (الاقتصاد فى الاعتقاد) :

« فالمعرض عن العقل مكتفيا بأنوار القرآن ، مثل المتعرض

(١) المنقذ من الضلال ص ٨٧ ، ٨٨ بتقديم د. عبد الحليم محمود .
(٢) الميزان ص ٤٠٩ تحقيق د. سليمان دنيا .

لنور الشمس مغمضا الأجفان فلا فرق بينه وبين العميان ، فالعقل مع الشرع نور على نور » .

ويقرر فى (الإحياء) ما ذكرناه من قبل أن لا غنى بالعقل عن السماع ، ولا غنى بالسماع عن العقل ، فالداعى إلى محض التقليد مع عزل العقل بالكلية جاهل ، والمكتفى بمجرد العقل عن أنوار القرآن والسنة مغرور ، فإياك أن تكون من أحد الفريقين ، وكن جامعا بين الأصلين ، فإن العلوم العقلية كالأغذية ، والعلوم الشرعية كالأدوية .. وظن من يظن أن العلوم العقلية مناقضة للعلوم الشرعية ، وأن الجمع بينهما غير ممكن ، هو ظن صادر عن عمى فى عين البصيرة ، نعوذ بالله منه »[1] .

(٦) : إن الغزالى ـ وإن دعا إلى التصوف والزهد والتوكل ـ لم يدع إلى إهمال شئون الدنيا من زراعة وصناعة وطب وغيرها ـ بل نراه يعتبر ذلك من الفروض الكفائية على الأمة فى مجموعها ، فإذا لم يتوفر فيها العدد الكافى لتلبية حاجاتها من تلك العلوم والصناعات فهى آثمة .

يقول فى كتاب (العلم) من (الإحياء) فى بيان (العلم الذى هو فرض كفاية) :

« اعلم أن الفرض لا يتميز عن غيره إلا بذكر أقسام العلوم

(١) الإحياء جـ ٣ ص ١٧ .

والعلوم بالإضافة إلى الغرض الذى نحن بصدده تنقسم إلى شرعية وغير شرعية ، وأعنى بالشرعية ما استفيد من الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه ، ولا يرشد العقل إليه مثل الحساب ، ولا التجربة مثل الطب ولا السماع مثل اللغة : فالعلوم التى ليست بشرعية تنقسم إلى ماهو محمود وإلى ما هو مذموم وإلى ما هو مباح ، فالمحمود ما يرتبط به مصالح أمور الدنيا كالطب والحساب ، وذلك ينقسم إلى ما هو فرض كفاية وإلى ماهو فضيلة وليس بفريضة ، أما فرض الكفاية فهو كل علم لا يستغنى عنه فى قوام أمور الدنيا كالطب ، إذ هو ضرورى فى حاجة بقاء الأبدان ، وكالحساب ، فإنه ضرورى فى المعاملات وقسمة الوصايا والمواريث وغيرهما ، وهذه هى العلوم التى لو خلا البلد عمن يقوم بها حرج أهل البلد ، وإذا قام بها واحد كفى وسقط الفرض عن الآخرين . فلا يتعجب من قولنا : إن الطب والحساب من فروض الكفايات ، فإن أصول الصناعات أيضا من فروض الكفايات ، كالفلاحة والحياكة والسياسة ، بل الحجامة والخياطة ، فإنه لو خلا البلد من الحجام تسارع الهلاك إليهم وخرجوا بتعريضهم أنفسهم للهلاك ، فإن الذى أنزل الداء أنزل الدواء ، وأرشد إلى استعماله ، وأعد الأسباب لتعاطيه ، فلا يجوز التعرض للهلاك بإهماله ».[1]

---

(١) الإحياء جـ ١ ص ١٦ .

وقد رأيناه ينكر على المشتغلين بالفقه فى عصره إهمالهم لبعض فروض الكفايات التى لا تقوم مصالح الأمة إلا بها ، مثل الطب ، وقال : " فكم من بلدة ليس فيها طبيب إلا من أهل الذمة ، ولا يجوز قبول شهاداتهم فيما يتعلق بالأطباء من أحكام الفقه ، ثم لا نرى أحداً يشتغل به ، ويتهاترون على علم الفقه ، لاسيما الخلافيات والجدليات ، والبلد مشحون من الفقهاء ممن يشتغل بالفتوى والجواب عن الوقائع ، فليت شعرى كيف يرخص فقهاء الدين فى الاشتغال بفرض كفاية قد قام به جماعة ، وإهمال ما لا قائم به ؟ ! "[1].

(٧) : إن (تبسيط) القضايا الكبيرة المعقدة ، التى تتكاثر أسبابها ، وتتداخل عللها ، وتتشابك أطرافها ، ليس من العلمية ولا من الموضوعية فى شئ .

فقضية مثل أفول نجم الحضارة الإسلامية ، وانحطاط الأمة الإسلامية وانسحابها من المقدمة إلى المؤخرة ، وغلبة الجمود والتقليد على الإبداع والاجتهاد ، مثل هذه القضية الضخمة المعقدة لا ترجع إلى سبب واحد ، ولا إلى عصر واحد ، بله أن ترجع إلى رجل واحد .

إن لهذا التخلف والانسحاب والجمود أسبابا عدة ، منها السياسى ، ومنها الاجتماعى ، ومنها الأخلاقى ، ومنها

(١) الإحياء جـ ١ ص ٢١ .

الثقافى .

وهذه الأسباب لم تنشأ دفعة واحدة ، ولا فى وقت واحد ، بل إنها تسرى فى كيان الأمم كما يسرى الداء فى أجسام الأفـراد ، يبدأ صغيرا ثم يكبر ، ضعيفا ثم يقوى ، محدودا ثم ينتشر ، خفيا ثم يظهر ، ثم إن الجسم إذا أصابه مرض ولم يجد من يعالجه أخذت تضعف مقاومته ، فتتسلل إليه الأدواء الأخرى ، داء بعد آخر ، حتى تحطمه فى النهاية ، كذلك الأمم والحضارات .

ولو أردنا تعليلا واحدا يجمع كل العلل فى علة واحدة لم نجد أفضل من قول العزيز الحكيم : { ذلك بأن الله لم يك مغـيرا نعمـة أنعمهـا علـى قـوم حتى يغـيروا ما بأنفسهـم } (سورة الأنفال : ٥٣) .

لقد غيرت الأمة ما بأنفسها ـ من أفكار ومعتقدات وقيم وفضائل ـ فغيَّر الله ما بها من نعمة وتقدم وانتصار وقوة ، سنة الله فى خلقه { فلن تجد لسنة الله تبديلا ، ولن تجد لسنة الله تحويلا } .

كلمـة أخيرة نقولـها هنـا للباكـين على الفلسفة ، والمتحـاملين عـلى الغزالى :

إن الفلسفة وحدها لا تحيى المجتمعات ، ولا تنهض بالأمم ،

إنما الحياة والنهوض والتقدم الحقيقى بالإيمان والأخلاق والعلم ، وطريقها ـ بالنسبة لأمتنا ـ دعوة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا فلسفة أرسطو .

إن الفلسفة قد ازدهرت فى الأندلس بعد الغزالى ، وظهر هناك أشهر الفلاسفة على الإطلاق : ابن رشد ، ومع هذا لم تتقدم الأندلس ، بل لم تبق ! بل سقطت وسقطت معها الحضارة الإسلامية هناك ، لأسباب كثيرة يعرفها دارسو التاريخ ، والعالمون بسر تقدم الأمم وتخلفها ، وعلة قيام الدول وسقوطها .

إن المسلمين لا يتقدمون إذا أصبحوا (أرسطيين) أو (فارابيين) أو (سينويين) ، وإنما يتقدمون ويصلحون وينتصرون إذا أصبحوا (محمديين) (قرآنيين) ، يوقنون من دينهم أن طلب العلم فريضة ، وأن إتقان العمل عبادة ، وأن عمارة الأرض جهاد ، وأن الاتحاد على الخير قربة ، وأن التعاون على البر والتقوى واجب ، وأن إتقان ما استطاعوا من قوة جزء من الدين ، وأن الحكمة ضالة المؤمن ، أنى وجدها فهو أحق بها .

بهذا يتقدمون ويتفوقون وينتصرون .

هذا ما وجه إليه من مآخذ ، وماعابه عليه الناقدون من

القدماء والمحدثين ، مما قد يقبل بإطلاق ، أو يرد بإطلاق ، أو يقبل بعضه ويرد بعضه .

وحسبه أنه كان صادقا مع الله ، مخلصا فى تحرى الحق ، متجردا لنصرة الدين .

نحسبه كذلك والله حسيبه ، ولا نزكى على الله أحدا « وإنما لكل امرئ ما نوى » .

رحم الله الإمام أبا حامد الغزالى ، فقد كان عملاقاً من عمالقة الفكر ، وإماماً من أئمة الدين ، ورائداً من رواد البحث عن الحقيقة واليقين .

الفهرس

وقفة مع الناقدين للغزالى

تقديم الطبعة الرابعة

الحمد لله والصلاة والسلام على عبده ورسوله محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه..

أما بعد: فهذه الصحائف التي بين يديك ـ أخي القارىء ـ تلقي شعاعاً من ضوء على أحد عمالقة الفكر والتجديد في تراثنا الإسلامي، إنها عبقرية فذّة أنبتتها تربة الحضارة الإسلامية الخصبة، التي طالما هيأت لأبناء الفقراء والكادحين أن يرتقوا شوامخ القمم بمواهبهم وكفاحهم، وأن يفرضوا أنفسهم على الزمن، ويصغى لهم سمع التاريخ.

فمن كان يظن أن ذلك الصبي الذي كان يكسب أبوه عيشه من مغزله، والذي لم يدع له من المال ما يكفيه مدة الصباة، حتى اضطر أن يدخل هو وشقيقه إحدى المدارس التي تتكفل بإيواء طلابها وإطعامهم والنفقة عليهم، من كان يظن أن ذلك الغلام

سيصبح يوماً حجة الإسلام، وعلم الإعلام، وإن الشرق والغرب سينتفعان به ويخلدان أثره؟

إنه الغزّالي[1]، الذي أثر في الفكر الإسلامي، وفي الحياة الإسلامية، تأثيراً منقطع النظير، من خلال عطائه الفكري، وعطائه الروحي، ومن خلال قصة كفاحه في سبيل الوصول إلى الحقيقة واليقين، والسعادة الروحية، التي هي عنده غاية الغايات.

أجل إنه الغزالي، الرجل الذي ملأ الدنيا وشغل الناس، في حياته وبعد وفاته، واختلف فيه السابقون، كما اختلف فيه اللاحقون والمعاصرون.

فمن مبالغ في الإعجاب به، والثناء عليه.. ومن مسرف في الاتهام له، والتحامل عليه.

ومن معتدل بين هؤلاء وهؤلاء، يعطي الرجل حقه، ويمدحه بما هو أهله، وينقده فيما يرى أنه قصر أو أخطأ فيه، والعصمة لمن عصمه الله.

---

(١) الغزالي: بتشديد الزاري هو المشهور، فهو منسوب إلى حرفة (الغزل) وهي مهنة أبيه، على عادة أهل خراسان، حيث يقولون: العطاري والخبازي نسبة إلى العطار والخباز، وقيل: بتخفيف الزاي، نسبة إلى (غزالة) قرية من قرى طوس.

وجدنا من السابقين من يعظم كتبه، حتى قال من قال: كاد (الإحياء) يكون قرآناً!

ووجدنا في مقابله من يقول: إنه إحياء لدينه هو، وليس إحياء لدين المسلمين!

فلا عجب، أن رأينا من تقرب إلى الله بإحراق كتبه، ومن تقرب إلى الله بنشرها وتعميمها!

ولا غرو، فالرجل خاصم فئات كثيرة، ألبها جميعاً ضده، وهاج عداوتها له.

فقد هاجم الفلاسفة، وفضح الباطنية، وندد بالحشوية، وعاب المقلدين وانتقد المتكلمين، ولام الفقهاء، وحمل على العلماء الذين يلتمسون الدنيا بالدين، وسماهم (علماء الدنيا) كما حمل على علماء (الظاهر) من الحرفيين الذين حجبهم القشر عن اللباب، وكشف اللثام عن كثير من ظواهر التدين المغشوش لدى طوائف شتّى من المجتمع.

كما كانت عنده ـ باعتباره بشراً غير معصوم ـ نقاط ضعف أخذها عليه منتقدوه، ولعل أبرزها قلة محصوله في علم الحديث، وهو ما اعترف به، وتسليمه الكامل بمناهج الصوفية وأفكارهم، دون أن يحاكمها إلى قانون الفقه الذي برع فيه وفي أصوله.

وقديماً قالوا: من ألَّف فقد استهدَف[1] فكيف برجل كالغزالي، كان غزير التأليف، ثرّ العطاء، خِصْبَ الانتاج، متنوع القدرات، متعدد المجالات، مع حرية في التفكير، وجراءة في التعبير؟

ثم هو يتعرض لتحقيق مسائل شائكة، والبحث في قضايا عويصة، هي مزلة أقدام، ومضلة أفهام، اعتركت فيها العقول، أو اضطربت فيها النقول، واختصمت فيها الفرق والمذاهب، وتباينت فيها الاتجاهات والمشارب، وغرق في بحرها الأكثرون، وما نجا منه إلا الأقلون و ﴿كل حزب بما لديهم فرحون﴾.

ولا غرو أن تباينت فيه الأقوال، ما بين معظم له كل التعظيم ومهاجم له أعنف الهجوم، شأن كثير من العظماء في التاريخ.

هذا عن المتقدمين.

وأما المعاصرون فهم مختلفون فيه أيضاً تبعاً للمدارس الدينية والتيارات الفكرية التي ينتمون إليها.

فالمدرسة الأشعرية التقليدية التي ينتمي إليها معظم الأقطار الإسلامية تعظمه غاية التعظيم.

---

(١) استهدف: أي صار هدفاً لغيره، فالسين والتاء هنا للصيرورة، والفعل لازم، وليس متعدياً، كما يستعمله كثيرون في عصرنا، يقولون استهدف كذا: يعنون، قصد إليه، وهو خطأ شائع.

وكذلك المدرسة الصوفية بمختلف طرقها تضعه في مرتبة الصديقين.

وأما المدرسة السلفية التي تخاصم الأشعرية، وتعادي الصوفية، فلها موقف آخر من الغزالي، فمنهم من يعترف بفضله، وينقده برفق واعتدال، ومنهم من يرسل عليه وعلى كتبه كلها شواظاً من نار.

وهذا إن دلّ على شيء، فإنما يدل على عظمة الرجل، وإبداعه، وخصوبة إنتاجه، وسعة آفاقه، وتنوع عطائه. شأن كثير من العظماء الذين يجنح كثير من الناس فيهم. إما إلى إفراط، وإما إلى تفريط.

ورضي الله عن علي بن أبي طالب الذي قال عن نفسه: هلك في رجلان: محب مغالٍ، ومبغض قالٍ!

وعلى كل حال فإننا نجد المعجبين به، والمثنين عليه، أكثر عدداً وأعز نفراً من الطاعنين عليه.

قال فيه الإمام محمد مصطفى المراغي شيخ الأزهر المعروف: إنه جملة رجال في رجل واحد!

وذكره الإمام المودودي ضمن الإعلام المعدودين الذين كان لهم دور بارز في إحياء الدين وتجديده، وعدد مجالات تجديده.

ويقول العلامة أبو الحسن الندوي: الغزالي من نوابغ الإسلام وعقوله الكبيرة، ومن كبار قادة الفكر الإسلامي، ورجال الإصلاح والتجديد، الذين لهم فضل كبير في بعث الروح الدينية، وإيقاظ الفكر الإسلامي، ومهما قيل فيه وقيل عنه فإن إخلاصه أسمى من أن يشك فيه.

ورفعه شيخنا الدكتور عبد الحليم محمود شيخ الأزهر وأستاذ الفلسفة إلى الذروة في العطاء الفكري وفي الارتقاء الروحي. معاً.

ويراه العلامة أبو زهرة: في أصول الفقه فيلسوفاً بين الفقهاء، وفي فروعه محققاً يتبع الدليل، ولا يتبع الأشخاص، وهو في الفقه أبين أثراً منه في الكلام والفلسفة.

أما الأستاذ عباس العقاد، فيعتبره ـ قبل أن يكون فقيهاً ومتكلماً وصوفياً ـ، الفيلسوف الذي اكتملت له كل أدوات الفلسفة، من القدرة على التجرد، والقدرة على التجريد.

ويقول عنه الدكتور أحمد فؤاد الأهواني: إنه مؤسس علم النفس الإسلامي.

ويصفه الدكتور زكي نجيب محمود بأنه (العملاق العظيم) ويلخص موقفه بعد فترة الشك في هذه العبارة: أنا أريد. إذن أنا إنسان!

والدكتور سليمان دُنْيا ينعته بأنه الشخصية الفذّة التي حيرت الكاتبين والمحللين.

والدكتور أبو ريدة يقول عنه: من أكبر مفكري الإسلام، ولعله أقربهم إلى الابتكار، وهو بطل من أبطال الإسلام الخالدين، الذين ناضلوا عنه..

والدكتور أبو ريان يرى أنه الشخصية التي هيأتها الأقدار للقيام بدور المواجهة الجذرية والحاسمة لتآمر الباطنية، ودعاوي الفلاسفة وأصحاب المناهج العقلية المعارضة للعقيدة.

هذا إلى جوار ما قاله عنه الأجانب والمستشرقون.

ومهما يكن من الخلاف في منزلة الغزالي وأثره في الأمة الإسلامية بالإيجاب أو بالسلب، فإن التاريخ يذكر أن جمهور المسلمين قد عرفوه بأنه (حجة الإسلام) و (مجدد القرن الخامس) و (محيي علوم الدين).

وإن المعاصرين ـ مهما اختلفوا في تقويمه ـ فهو عندهم جميعاً في الذروة من أعلام الفكر في الإسلام، وأعلام الفكر في العالم، وأعلام الباحثين عن الحق، وأئمة الداعين إلى الله، وإلى تقواه، والمدافعين عن قيم الإسلام.

وما كتب عنه في الشرق والغرب، بالعربية وغيرها، من المسلمين وغير المسلمين، شيء يصعب حصره.

وستظل الأقلام تكتب، والمكاتب تنشر، والعالم يقرأ، عن الغزالي.

ولن تتوقف الندوات ولا المؤتمرات ولا المهرجانات التي تقام لإحياء ذكرى الغزالي.

رحم الله إمامنا الغزالي، وجزاه عن دينه وأمته خيراً، وأجره أجرين على ما أصاب فيه، وما أكثره، وأجراً واحداً على ما تحرى فيه الحق فأخطأه. آمين.